

شارع قابل

شارع قابل

Gabil Street

د. حنان محمد طالب

رواية



قنديل | Qindeel

Gabil Street

Dr. Hanan Mohammed Taleb

Novel

شارع قابل

حنان محمد طالب

© 2017 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

موافقة « المجلس الوطني للإعلام » في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: 193449 تاريخ (2017/04/03)

ISBN: 978- 9948- 23- 572- 9

إن الأحداث والشخصيات المذكورة في هذه الرواية هي من محض خيال الكاتبة ولا تعبر عن أحداث أو أسماء على أرض الواقع، كما أن الناشر لا يتبنى بالضرورة الأفكار والتوجهات المذكورة في الرواية.



قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي - دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© جميع الحقوق محفوظة للناشر 2017

الغلاف بريشة الفنان البرفسور محمد بلبيسي- أمريكا

الطبعة الأولى: نيسان / أبريل 2017 م - 1438 هـ

إلى والديّ

شارع قابل شارع حقيقي وموجود حتى الآن في جدة القديمة، تم ذكر اسم الشيخ سليمان قابل واسم الجسيس محمد أمان رحمهما الله تكريماً لهما، عدا هذا فإن شخصيات الأبطال والأحداث في هذه القصة كلها خيالية، ولا تمت للواقع بصلة، ولذلك فإن أي تطابق أو تشابه بينها وبين الواقع هو من قبيل الصدفة.

الحياة صراع بين الخير والشر، بين بين النور والظلمة، وليس شرطاً أن تعكس أو تمثل هذه الأحداث الدرامية الحجازيين أنفسهم.

مقدمة

التاريخ 17 ديسمبر 1925، المكان بيت في مدينة جدة، تتعالى فيه صرخات امرأة تعاني آلام المخاض، وصوت الخالة لطيفة الداية⁽¹⁾ يقول: «مرة ثانية اضغطي. خذي نفساً عميقاً. دحين اضغطي».

وتصرخ الداية: «سختوا الموية؟»

فتأتي سيدة تحمل طستاً فيه ماء ساخن يميل لونه إلى الصفار.

الداية: «هذي الموية مو نظيفة».

السيدة: «هذا أنظف شيء عندنا إنت عارفة البير وغطاه، رافعين

الموية هذي عشان ولادتها من كم أسبوع».

«أمري لله». وتوجه كلامها إلى المرأة بين يديها: «اضغطي».

(1) الداية هي المرأة التي تساعد في الولادة وتسمى أحياناً القابلة وهي مهنة اندثرت هذه الأيام بسبب التقدم الطبي.

تتعالى الآهات، وألسنة النساء حولها تلهج بالدعوات والآيات القرآنية، يتوقفن قليلاً عندما تصرخ الأم، ثم يعدن للابتهالات.

فجأة.. تعالت أصوات مختلفة خارج الغرفة، فزعت النساء، ليس على السيدة التي تعاني آلام الولادة ولكن بسبب أصوات الناس الذين يجرون في الشارع.

واقتربت إحداهن من الروشان⁽¹⁾ تبحث عن إجابة. فما عادت صرخات الأم التي تلد تهمهن أمام ضجيج الناس الذين يجرون في الشارع وتتعالى أصواتهم في الأزقة ويرجع صداها من السماء. صرخت المرأة من فتحات الروشان: «يا ناس.. إيش في؟».

نبهتها إحداهن: «وي عيب. صوتك لا يطلع!».

ردت: «هش. خيلنا نسمع إيش بيصير».

رد أحدهم وهو يجري ويصرخ بابتهاج في آن واحد: «الحصار على جدة انتهى. أبواب جدة انفتحت».

لم تكن هنالك أية فرصة لاستيعاب الخبر. فقد صرخت الأم آخر صرخة مؤلمة وبعدها بثوانٍ تبعها صرخات مولودتها.

أخذت الداية المولودة المضرجة بدمائها ورمتها على صدر الأم وقالت النسوة: «بنت.. بنت».

(1) الروشان: نافذة خشبية كبيرة تقي من أشعة الشمس وتسمح بالتهوية في نفس الوقت وتكون داعمًا قوياً لجدار بيوت الحجاز القديمة.

كانت الأم تتنفس بصعوبة وقالت بتألم: «انتهى الحصار... أبواب جدة انفتحت بعد شهور.. راح العذاب والتعب.. راح أسميها فتحية». وانهمرت دموع الألم ممتزجة بالفرحة.

مسحت الخالة لطفية العرق من جبينها. والدم من على المولودة وهي تقول لها: «يا هلا بيكي في الدنيا يا فتحية».

أما الشارع فقد كان لا يزال يضج فرحاً كأن مدينة جدة وُلدت من جديد. ودخل القائد عبد العزيز آل سعود بطلاً مغواراً مرفوع الرأس بهيئة. مبتسماً للناس. الذين ابتهجوا مع صهيل فرسه.

واستبشروا خيراً. واستقبلوه بالهتافات والتأييد آملين بعهد جديد، حالمين بحياة جديدة.

1

أشرقت شمس عام 1960 على مدينة جدة، وتخللت أشعتها فراغات سقف شارع قابل المصنوع من المعدن المضلع⁽¹⁾.

تعالّت أصوات التجار تخترق مسامع المارة وهم يقولون: «يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم» كلما فتحو باب محل من محلاتهم، كان صرير الأبواب يعلن بدء يوم جديد ورزق من الله الرازق الكريم. الجو حارٌّ ولا تكفي المراوح في محلاتهم لتلطيف حرارة الجو، لكن الكل سعيد. الابتسامات تعلو وجوه التجار وتضفي على تجاعيد وجوههم بعضاً من الهيبة والوقار.

سكب بعضهم الماء على مداخل دكاكينهم. وكان الماء ينتقل من محل إلى محل جارفاً معه الأتربة والأوساخ، وكأنه يغسل الأرض ويغسل معه قلوباً كانت عند بعضها البعض. فالجار حبيب جاره، والكل يتنافس في إكرام غيره حتى لو كان منافسه.

(1) المعدن المضلع ويسمى توتوة في اللهجة الحجازية.

علا صوت أحدهم: «مرحباً. العمدة هنا».

التفتت الوجوه تبحث عن العمدة من بين الزبائن الذين تكاثروا وتزاحموا. والعمدة يمر من بينهم رافعاً يده وداعياً لهم بالبركة والرزق برفقة ساعده الأيمن «النقيب» حتى وصل نهاية السوق، وفي ركن فسيح جلس على «المركز» الجلسة الخشبية التي يجلس في صدرها عمدة حي البلد أو كبيرهم في حالة غياب العمدة، ويجالسه كبار وأعيان مدينة جدة وشيوخ تجارها. فيستمع إلى أخبارهم وهمومهم ويحلّ خلافاتهم لينشر السلام والمودة بين الجميع.

«حياك الله يا عمدة من زمان عنك».

أشار إليه العمدة بالجلوس إلى جواره وهمس في أذنه سرّاً.

قال التاجر: «أبشر. بكرة يا النقيب تمر على الدكان في أمانه أبغاك توصّلها».

الأمانة كانت صدقة لعائلة تحتاج المعونة. لم يكن هنالك فقير بمعنى الفقر في الحجاز ؛ لأن الناس يتكافلون ويحنو بعضهم على بعض. أما النقيب فكان من مهامه المرور على التجار لجمع الصدقات، ومساعدة من يحتاج سرّيّة، خاصة من لا يشكوهم إلا لخالقه.

كان العمدة يُذكر الناس بنعمة الأمن والأمان بعد توحيد المملكة: «نحمد الله على نعمة الأمن. مرّ ثمان وعشرون سنة

على توحيد البلاد على يد ملكنا عبد العزيز رحمة الله عليه عام 1932. الله يتمم علينا نعمته».

وبينما هو يتحدث إذا به يقاطع نفسه قائلاً ببهجة: «يا أهلاً وسهلاً بأبو محسن. يا هلاً. اتفضل».

تبادل أبو محسن التحية مع العمدة واتخذ جلسته. وضم الحديث السؤال عن الأحوال وآخر الأخبار. قال العمدة: «أتمنى إنك حبيت شارع قابل. ولا اشتقت لكانك القديم في سوق الندي أبو محسن؟».

رد أبو محسن مبتسماً: «والله يقولوا قديمك نديمك. الحمد لله. زبائني اللي يعرفوني من سوق الندي بيحجوا لشارع قابل يشتروا بهاراتهم من عندي. يا رب لك الحمد».

تنهد العمدة بارتياح: «الحمد لله يا رب طممتني والرزق على الله في أي مكان يا أبو محسن. أهم شيء النية الطيبة والرزق الحلال».

وافقه الرأي أبو محسن بقوله: «صدقت والله يا عمدتنا».

قال أحد التجار للعمدة: «شوف كيف الأيام بتجري يا عمدة. شهر رمضان الفضيل قرب».

رد كل من على المركز: «اللهم بلغنا رمضان.. آمين.. آمين».

وفي هذه الأثناء جاء الشيخ إسماعيل تاجر الشعير والدخن

بغبانته⁽¹⁾ الجميلة، تعلو وجهه هموم وأحزان، واتخذ مكانه في المجلس قائلاً: «أخباري مو طيبة يا عمدة. واحدة من مراكبي الشراعية غرقت من طريقها من اليمن لميناء جدة اليوم الفجر».

تعالَت أصوات الرجال: «لا حول ولا قوة إلا بالله». «إنا لله وإنا إليه راجعون».

وقبل أن يهمس العمدة في أذن النقيب. رفع الشيخ إسماعيل يده وقال: «أبدأ. لا والله ما أحتاج أي فزعة⁽²⁾ الخير كثير، بس النفس خزينة على المصاب لأني فقدت واحداً من عمالي على المركب الشراعي في البحر الأحمر.. خيركم سابق يا عمدة ويا الرجال الطيبين. لو احتجت بأكلمكم وانتم أهل الواجب».



في أحياء مدينة جدة، أخذت بعض النساء زيتتهن بعد صلاة العصر وأخذن أطفالهن للذهاب إلى رحمان⁽³⁾ حفيد أبي حسين شيخ العطارين في مكة، أما أم حسين فقد كانت مبتهجة والنساء يدخلن إليها ويباركن لها الحفيد الجديد من ابنها حسين وزوجته زكية سراج.

كانت السعادة تتلأأ على وجهها والنساء يمتدحنها كونها صارت جدةً وهي ما زالت في ريعان الصبا، فتردّ مازحة: «ما هو».

(1) الغبانة هي العمة التي تلف بطريقة حجازية مميزة.

(2) الفزعة هي المساعدة الفورية.

(3) هي حفلة حجازية للأطفال توزع فيها حلويات وشموع ويمكن إقامتها في أي وقت، أما السابغ فكان لا بد أن يقام في اليوم السابع لولادة الطفل.

كلنا اتجوزنا وإحنا صغار بيكبرونا الأحفاد دحين شوفوا الزمن كيف بيجري».

كانت أم حسين تستقبل سيدات جدة اللاتي لم ترهن منذ زمن، فهي مقيمة في مكة ولها منزلها في جدة، تتردد بين المنزلين من حين لآخر، ولأن زوجة ابنها زكية من جدّة فقد قررت أم حسين أن تقيم سابع المولود في مكة، وأن تقيم الرحماني في جدّة كي تلتقي بصديقاتها وقريباتها.

كان الكل يسأل عن السيدة التي تشبهها وتقف لتحياي النساء معها فتجيبهم أم حسين: «هذي أم عبد الفتاح أختي تعيش في الطائف عشان كدة ما تشوفوها كثير».

فجأة سمعت السيدات صوت شاب من زقاق الحارة ينادي بأخبار الأحياء وهو يجرب طبلته قبل رمضان. إنه «المسحراتي»⁽¹⁾ الجديد الذي تسلم الطبلّة من سيدة ورثت مشيخة المسحراتية فاستأجرته ليتدرب وأعطته ورقة مكتوباً عليها اسم عائلة جديدة انتقلت للحج قبل فترة، واسم من وُلد له وَلد، ومن له مناسبة معينة. فأخذ الشاب ينادي على وقع دقاته على الطبلّة تحت بيت الجيران: «حسان محمد بيض الله وجهه، نجح خلص الكتاب وختم القرآن وسووله صرافة»⁽²⁾.

(1) المسحراتي هو من يدور على البيوت في ليالي رمضان ليقظ النائمين لتناول طعام السحور، ويذكر أسماء الموجودين واحداً واحداً مما يبهج الأطفال، وقد اندثرت هذه العادة القديمة بعد توسع العمران.

(2) الصرافة هي زفة حجازية تراثية للطفل الذي حفظ القرآن الكريم أو جزءاً منه، ويحتفل به الجميع وهو يلبس الزي الحجازي المسمى (الزبون) في جو مليء بالمحبة والشكر لله على الإنجاز العظيم.

كان المسحراتي الجديد يمشي والأطفال يتبعونه سعداء بالطفلة، حتى أن بعض أطفال الرحماني نزلوا الشارع ليشاهدوه ويسمعوه وهو ينادي: «بارك الله لكم في عمر الولد الجديد، حفيد شيخ عطارين مكة».

وإذا بجدة زكية من والدتها المرحومة ويناديها الجميع بـ «شستي حسنية» قد أخرجت من صدرها قروشاً وأرسلت أحد الأطفال وهي تقول: «قوم يا ولد روح أعطي هذا للمسحراتي وقول له يصحينا ويعلي صوته لما رمضان يجي بعد أسبوعين».

أخذ الطفل القروش ونزل. واستمر المسحراتي بالتدريب بين الأزقة حتى تلاشى صوته وعلت أصوات السيدات مرة أخرى..

قامت الأختان أم حسين وأم عبد الفتاح بواجب الاستقبال وتوزيع الشاي والحلويات. ولم تخلُ أحاديث النساء من توقعات بأن أم حسين لم تُقَمِّ حفل الرحماني في جدة إلا لأنها تبحث عن عروس لابنها الأصغر مروان. هو الآن شاب في مقتبل العمر وابن شيخ العطارين في مكة وكل الأسر تتنافس على جذب اهتمام أم العريس.

كانت الغرفة مليئة بالفتيات المرشحات للزواج. كلُّ منهن تريد لفت انتباه أم حسين سواء بالسؤال عن توزيع الحلويات، أو السيطرة على الأطفال الموزعين هنا وهناك وحتى علا الدرج. كانت إحدى النساء تتحدث عن حفل الصرافة لابنتها وفخرها بها.

وصلت فتحة أم محسن ومعها ابنتها صفية ونورية.

كانت صفية آية في الجمال. طويلة القامة ذات جسد متناسق ممشوق وشعرها ناعم ينسدل على كتفيها، وعينين عسليتين طويلة الأهداب، فلما دخلت الغرفة شهقت النساء لجمالها وحسنها.

ولم ينتبهن لأختها التي تصغرها بعام «نورية» والتي لا تشبه أختها في شيء، فهي سمراء وشعرها داكن.

قالت النساء لفتحية: «العرق التركي ضرب على بنتك صفية يا فتحية. المفروض هي اللي تسميها نورية مو بنتك الثانية».

كانت فتحية تشعر بالحزن على ابتها نورية عند سماع تعليقات النساء، مما يجعل نورية غير واثقة من نفسها لا تريد الخروج مع أختها لأي مكان. تمشي مطأطأة الرأس. كأنما ينطبق عليها المثل القائل: «يا ليتني كنت بيضة وعرجاء. ولا سمراء أصلو البياض فرجة»⁽¹⁾.

ألسنة النساء لا ترحم، ونظراتهن نارية تخترق القلوب كان من عادات أهل الحجاز إذا وصلت الفتاة إلى سورة الضحى في الحفظ عُمِلت لها صرافة وهي عبارة عن حفل تحمل فيه الفتاة لوحًا ويسرن في موكب يجتمع فيه السيدات والجارات ويبدأن بالزغاريد وتوزع الحلوى على الحاضرات، ولا تخرج المعلمة التي تسمى فقيهة إلا بعد الحصول على مبلغ من المال من والدته البنت إكرامًا لها على حسن تعليمها القرآن الكريم، أما إذا وصلت البنت في الحفظ حتى جزء عم فكانت تسمى هذه الحفلة «القلابة».

وتزلزلها. وكان هذا لا يزيد صفية إلا تباهاً وخيلاء. فقد كبرت

(1) مثل حجازي يقال على تميز الجمال بالبشرة البيضاء أكثر من اللون الأسمر.

وهي تسمع مديح جمالها على كل لسان، وتنتشي كلما رأت الدهشة ترتسم في عيون كل من يراها.. لم تكن تهتم بمشاعر أختها، لا تنظر أبداً للأرض ودائماً ما تنظر من على. كما تتصنع الدلال وتمشي بكبرياء وثقة بين النساء.

في الوقت الذي تطلب فيه نورية من والدتها أن توسع فساتينها لعدم ثقتها في تناسق جسدها. كانت صفية تدرك مدى جمال خصرها فكانت تطلب العكس من والدتها حتى تبرز معالم جسدها الفتان، وفي الوقت الذي تضع نورية الطرحة على رأسها وتلفها بربطة حجازية صحيحة، كانت صفية ترخيها ليظهر شعرها الغزير.

سلمت صفية على صديقة عمرها المقربة منها «ياسمين»، كبرتاً معاً، وعائلاتهما جيران مقربون جداً. أم ياسين وأم محسن صديقتان مقربتان جداً وجارتان عزيزتان كما هو الحال أيضاً مع أبي ياسين وأبي محسن فهما جيران بدكاكينهم في شارع قابل.

قالت ياسمين: «صفية شوفي كل العيون عليك يختي».

ابتسمت صفية بتعالٍ: «مو جديد علي ياسمين. ربي أعطاني الجمال».

واقتربت منهما ثلاث فتيات وسألت إحداهن: «إنتي اسمك صفية؟».

كانت السائلة هي حياة أخت حسين ومروان.

فردت صفية بكبرياء: «إيوة. إنتي عمة المولود صح؟»

أومأت حياة برأسها إيجاباً: «ايوة وهذولا بنات خالتي رحمة وأمنة توأم نفس عمري تقريباً. من الطائف».

سلمت البنات على بعضهن وقررن أن يدخلن غرفة زكية ليباركن لها بالمولود.

فيما كانت صفية تدخل الغرفة سمعت إحدى السيدات تقول لصديقتها: «شكلها أم حسين معجبة بجمال صفية. ناوية أكيد تخطبها لمروان ولدها. شوفي أرسلت بنتها تتكلم معاها».

حينها انعقد حاجبا صفية. ودق قلبها دقة غريبة. وكأنها سمعت نذير شؤم.



كانت أحاديث النساء تدور حول زمن الفقيهة والكتاتيب النسائية التي ستنتهي وقد آن الأوان ليسجلن بناتهن في مدارس دار الحنان التي فتحتها الأميرة عفت الثنيان قبل خمس سنوات. ففي هذه المدرسة لا يُكتفى بحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والمواد الدينية فقط، بل يتعدى الأمر ليشمل الرياضيات والعلوم والجغرافيا مثل مدارس البنين، وتشمل كذلك تعليم الخياطة والتفصيل والتطريز.

علقت إحدى النسوة: «بس يا رب يحميننا إن كان العلم هذا يخلي بناتنا يشيلوا الحجاب ويتحرروا زي اللي بنشوفهم في مصر وسوريا».

ردت أخرى: «والله عشان كدة جد البنت ما سمحلنا ندخلها مدرسة».

واستمرت الأحاديث النسوية بينما كانت زكية أم المولود الجديد، تستقبل المهنّات في غرفتها بملابس بيضاء فاخرة. ومولودها الصبي «عمر» بجوارها.

«سميته عمر على اسم أبوي عمر سراج الله يرحمه الحمد لله حسين ما مانع ولا أبوه».

وأردفت: «صفية وحشتيني من زمان عنك».

لكن صفية لم ترد. كانت شاردة الذهن قلقة. وعندما انتهت أشارت إلى زكية خفية كي تطلب من البنات الخروج من الغرفة، استجابت زكية لرغبتها قائلة: «بنات ممكن تستنوني برة صفية بتزبطني فستاني».

خرجت البنات وسألت صفية بلهفة: «كيف حال أخوكي نبيل؟».

كانت زكية تريد أن تستخدم أسلوب المزاح معها لكن صفية كانت جادة. حيث قالت بقلق: «زكية. الله يخليكي.. أنا خائفة. خائفة ما أكون لنبيل. إنتي تعرفي إننا نحب بعض من ثلاث سنوات».

ضحكت زكية: «حب رسائل. وأنا المرسال.. حبيتي الحب الحقيقي بعد الزواج و».

قاطعتها صفية بعتاب: «مو وقتوا دحين تعطيني محاضرة».

رسائل ولا غيره الحب حب مو كفاية هو في أمريكا من سنة
بیدرس وإنتي اتزوجتي وفين وفين صرت أشوفك».

حاولت زكية تهدئتها: «قلتلك هو جا من أمريكا قبل أمس
وناوي يتقدم يطلب إيدك من بابتك بكرة. لا تقلقي بس خليني
أخلص اليوم من الرحمانى. قومي ساعديني دحين».

ارتاحت صفية. وشعرت بأنها تنفست الصعداء أخيراً، وجرت
الدماء في وجنتيها واحمرت خجلاً عندما نطقت زكية كلمة:
«يطلب إيدك».

دخلت أم حسين ورمقت صفية بنظرة إعجاب سريعة وقالت:
«هيا يا زكية الأطفال جاهزين وشغلنا الشموع. جاهزة للزفة».

كانت زفة زكية مليئة بالمرح والسعادة والأطفال يحملون
الشموع المضيئة ويغننون:

يارب يا رحمانى	بارك لنا فى الغلامى
مولى سعدنا وهنانا	وأعطانا مولوداً جديداً
من فرحتنا قمنا غنينا	مبوك سابع سعيد

المولود الجديد عمر يلبس ثوباً أبيض مطرزاً وينام على مخدة
بيضاء مطرزة. وسط الفرحة والأهازيج همست ياسمين في أذن
صفية: «ها سألت زكية عن نبيل؟».

اصطبغت أذنا صفية بلون أحمر قانٍ عندما قالت خجلاً بوجنتين
موردتين: «بكرة راح يتقدملي من أبوي».

تهللت أسارير ياسمين وصفية حتى كادت تطيران من على الأرض.

جاءت ستي حسنية التي ربّت زكية ونبيل بعد موت أبويهما، وبين يديها وعاء مليء بحبة سوداء وكناسة العطار⁽¹⁾ ونثرت منه على الأطفال. وفي زوايا الغرفة.

جلست الداية التي ولدت زكية على الأرض وجلس حولها الأطفال في حلقة دائرية، وضعت الرضيع عمر في غربال كبير مفروش بقصب وهزته وغنت له والأطفال يرددون معها:

غربلو يا غربلو حتى النونو يتغربل

غربلو يا غربلو حتى الرز يتغربل

غربلو يا غربلو

خلي الصايغ يعلمو

ساعة ذهب والباقي خاتم لأموه غربلو

يا غربلو حتى الحب يتغربل

ثم ترفع الداية صوتها أكثر وتدق بيد الهوند⁽²⁾ وتقول:

(1) كناسة العطار: كل ما يسقط على الأرض في الدكان هو مادة مفيدة كغذاء أو علاج أو بخور كالصندل أو المسك أو غير ذلك من هذه العطارة التي تجمع في آخر اليوم وتوضع في وعاء مخصوص اسمه كناسة العطار، وهي رخيصة بالنسبة لبقية العطارة لذا فهي في متناول الجميع غنيهم وفقيرهم.

(2) الهوند أو الهاون: آلة معدنية تستخدم لطحن الحبوب والبهارات وغيرها.

العليا العليا القبة الخضراء المحلية

رسول الله بيض الله وجهه

ويردد الأطفال والنساء «يستاهل» وبعدها تغني وتعدّد أسماء عائلة الطفل عمر، جده «أبي حسين»، وأبيه حسين وعمه مروان، وعمته حياة، وعندما جاءت لعائلة زكية أمه قالت: «وخال النونو نبيل».

هنا دق قلب صفية بقوة. ونظرت للحاضرين وكانت تود أن تصرخ: «هذا هو حبيبي».

دقت الداية بيد الهوند أكثر وأكثر عند رأس المولود الذي بدأ بالبكاء خوفاً ووجلاً. مع كل دقة كان قلب صفية يقفز نشوة.

جاءت زكية من ناحية المطبخ وهمست في أذن صفية: «اطلعي جهة السطوح. نبيل مستنيكي».

كانت المرة الأولى التي يطلب منها نبيل رؤيتها.

دق قلبها فرحاً ولكنها لم تتوانَ وانسحبت بهدوءٍ دون أن ينتبه إليها أحد. حملت مقدمة فستانها لتصعد على الدرج. وأصوات الرحماني تتباعد عن أذنيها شيئاً فشيئاً. حتى رأت نبيل.

طغت رائحة الريحان والفلفل المزروعين على السطح. كان نبيل يبدو وسيماً بالعِمة الحجازية البرتقالية. والصديرية المطرزة.

كان أوسم رجل تقع عيناها عليه. خجلت قليلاً ولكن سرعان ما تجرأ نبيل وأمسك بيد صفية التي ألجمها الخجل: «إنتي يا صفية

حبي الوحيد تعبت وأنا بعيد عنك. راح أطلب إيدك بكرة ونتجوز
وتيجي معاي أمريكا. إنتي حلوة».

وأمسك بكفها الأيمن وقبلها. وأعطاه بعض زهور الفل
الأبيض.

كانت يد صفية ترتجف. ودقات قلبها تعلو كدقات طبول
الحرب، غمرها الحياء فسحبت يدها ونزلت مسرعة، وعند الباب
صادفت طفلاً لا يتجاوز العاشرة من العمر ويُعتبر أكبر الأطفال في
الحفلة. قال لها ببراءة مبطنة بخبثٍ مراهقةٍ مبكرة: «كلنا نقول إنك
إنتي أحلى واحدة في جدة كلها. ممكن أعطيك هذي الشمعة».

ثم مد يده بشمعة بيضاء من شموع الرحماني قائلاً: «أنا ما
ولعتها لساتها»⁽¹⁾ جديدة. شوفي».

خفق قلب صفية قلقاً من أن يكون الطفل قد رآها وهي تكلم
نبيل، ولكن براءة عينيه طمأنتها.. فأخذت الشمعة البيضاء الجديدة
وهرب الطفل من أمامها بخجل تماماً كما هربت هي من نبيل.
عرفت فيما بعد أن اسمه «عمران» وهو ولد تاجر أقمشة في شارع
قابل، وبرغم أن عشر سنوات عمر حرج يبدأ فيه الطفل بالانعزال
عن المجتمع النسائي إلا أن جسد عمران الصغير كان يؤهله قليلاً
ليستمتع بالدخول لمجتمع النساء أكثر من أقرانه، لذلك حضر
الرحماني وربما كانت آخر حفلة له حيث أقنعت أمه ألاّ يحضر
بعدها حفلات النساء.

(1) لساتها: مازالت.

دخلت صفية بين جموع النساء دون أن ينتبهن إليها. يتصبب العرق من جبينها. والسعادة تغمرها.

قالت الداية وهي تدق الهوند مرة أخرى عند رأس المولود:

اسمع كلام أمك ولا تسمع كلام أبوك

لا تضرب أمك بس اضرب أبوك

لا تعصب أمك بس عصب أبوك

كان الكل سعيداً ومبتهجاً لكن فرحة صفية قد تعدت حدود الخيال.

جاءت أم حسين وستي حسنية ونثرا في الهواء حلويات مع قروش ارتطم بعضها بالسقف ثم سقط فصرخ الأطفال وصاروا يلتقطونها. لوقع القروش على السجاد صوت يعرفه الأطفال.

يصاحبه ضجة كبيرة وبكاء أحياناً حين يخطف طفلاً القرش من يد الآخر. رغم كل هذا الضجيج، إلا أن صفية لم تكن تسمع سوى صدى صوت نبيل يتردد في أذنيها.

كان الطفل عمران محترفاً جداً في لملمة القروش وهو يرمق صفية عن بُعد ويبتسم لها، بادلته صفية الابتسامة ولوحت يديها.

ثم انتهى الرحماني ووُزعت الحلويات على الأطفال وكذلك الألعاب، حصل الأطفال على سيارات والبنات على عرائس، وكانت فرحتهم كبيرة.

لحظات وداع النساء لبعضهن قبيل المغرب يحلو فيها الكلام على الدرج والوعود والأمنيات بأن يرين بعضهن مرة أخرى.

كان لا بد وأن يبدأ أوارحلة العودة لبيوتهن قبيل غروب الشمس، فإن تأخرن توجب على أحد رجال عائلتهن أن يأتي لاصطحابهن.

فرغ البيت من الضيوف. وكانت أم حسين مشغولة بالبحث عن آثار قطرات الشموع المذابة المتساقطة على الأثاث والسجادة وهي تشتكي شقاوة الأطفال الذين لا بد منهم في حفل الرحماني.

كانت تلملم هي وحياء بقايا تغليف العرائس وصحون الحلويات والأكل. تساعدهم خادمة حبشية تعيش معهم في مكة.

بعد عدة شوارع وفي حارة الشام. ومن روشن خشبي جميل.

كانت صفية تتنفس هواء الليل. حتى نامت وتحت وسادتها زهور الفل.. نامت تتخيل أغاني زفة العروس والدبش⁽¹⁾ وتحلم بليلة زفافها على نبيل. تمسك يدها اليمنى وتذكر قبلة نبيل عليها.

ليلتها أحبت كفها اليمنى كثيراً. ثم راحت في سبات عميق تحلم أحلاماً وردية.

صباح اليوم التالي كانت زكية ترضع المولود عمر.

سألتهما حماتها أم حسين: «ها ما غيرتي رأيك يا زكية؟»

كانت زكية تريد قضاء بعض الأيام في بيت سرتها حسنية،

(1) الدبش هو جهاز العروس من ملابس جديدة وذهب وحقائب ومكياج وغيرها.

والسبب الحقيقي هو أنها كانت تريد أن تتمم موضوع خطبة أخيها، لكنها لم تخبر حماتها أم حسين عن نيتها ؛ لأنها تؤمن بأنه لا بد وأن تستعين على قضاء حوائجها بالكتمان.

فردت عليها بأدب: «يا ليت يا عمتي أقدر أجلس فترة عند ستي حسنية».

«بس راح توحشنا يا زكية، تعرفي حسين لازم يكون في مكة عشان دكان أبوه».

«مو مشكلة. بعد أسبوع خللي حسين يجي من مكة وياخذنا أنا وعمر بإذن الله أجي قبل رمضان».

رغم أن حسين لديه سيارة في مكة لكنه استخدم الأنيسة⁽¹⁾.

للسفر من مكة إلى جدة، ثم حان وقت الرحيل فركب كل من أم حسين وابنتها والخادمة وكذلك زكية وابنها.

بدأت الأنيسة تخترق الأزقة حتى وصلت لأقرب نقطة لبيت ستي حسنية في حي المظلوم. وكان نبيل واقفاً ينتظرهم أمام باب المنزل.

نزلت زكية ومعها بقشة⁽²⁾ كبيرة وحمل حسين طفله عمر ورافق زوجته زكية حتى باب البيت وسلم على رحيمة⁽³⁾ نبيل قائلاً: «ما أوصيك على أختك زكية».

(1) الأنيسة: الميكروباس الصغير يستخدم للنقل.

(2) البقشة: هو الاسم الشعبي لقطعة القماش المستخدمة لجمع بعض الأغراض لتؤدي عمل الحقيبة.

(3) الرحيم بمعنى النسيب وهو زوج البنت أو زوج الأخت.

فرد نبيل «أفا رحيم. في عيوني أختي».

ثم وعد حسين زوجته أن يأتي ليصطحبها بعد أسبوع، وركب في مقدمة الأنيسة، قالت أم حسين: «والله نبيل هذا وسيم مرة».

لم يعلق حسين. لكن عيون حياة كانت ترمقه من خلال زجاج الأنيسة الباهت، تحرك الأنيسة بهديره العالي. ونفث دخانه وشق طريقه من جدة إلى مكة ما بين مطبات وحفر حتى وصلوا للطريق المعبد بالأسفلت والذي يعود فضل شقه إلى الملك فاروق الذي زار الملك عبد العزيز بعد توحيد المملكة

في أوائل القرن العشرين.

أما نبيل فكان يستعد ليوم حافل قد يغير مجرى حياته.



في المساء كانت الأم تحكي: «بعدين سألت الداية الحريم بعصية سختوا الموية؟ وجابولها موية صفراء عكرة وقالت هذي الموية مو نظيفة. إلا قالولها: هذي أنظف موية عندنا محتفظين بيها من أسابيع».

رد الطفل حسان ذو السنوات العشر: «أمي ليش الموية وسخة؟ ردت نورية: «كم مرة أمي قالت عشان الحصار».

كررت الأم: «صح عشان الحصار. الخيام كانت على أبواب البلد، ويقولوا إنو اللي يوقف على سطوح البيت كانوا يقدرُوا

يشوفو الخيام، والأسعار ارتفعت في جدة، بالذات الموية، واللحم كمان صار غالي والأمراض انفشّت بين عساكرها لأن الموية وسخة وعفنة».

رد حسان ببراءة: «أمك أكيد تعبت صح؟».

ردت نورية باستفزاز: «أكيد يا حسان جدتي تعبت والكل تعب».

قاطعتهم صفية: «ونحننا تعبنا نسمع هذي الحكاية مليون مرة».

تركتها أمها في حالها وأكملت: «واضطر الناس يبيعوا بعض أملاكهم ولا أحد كان يشتري، وكان فيه صهريج اسمه صهريج نوري كان يخزن مياه الأمطار، حتى اتفك الحصار لما صاح الناس بفرحة وقالوا إنو جدة اتفتحت، أمي ولدني فقالت إنها بتسميني فتحة».

قالت نورية لأختها: «الإيمان نازل عليك من صبح الله وإنني بتقرأ القرآن!».

زهور الفل لازالت رطبة داخل مصحف صفية، تفتحه وتشم رائحته، وتردد على لسانها وبين خلجاتها: «نبيل عمر سراج».

تجاهلت صفية كلمات أختها وقالت بلا مبالاة: «يا أمي متى أبوي يرضى نقل من الحارة كلهم ينقلوا لأحياء واسعة وفل كبيرة».

محد صار يعيش هنا في حارة الشام. خلاص طفشت من هذا البيت القديم».

كانت فتحة على وشك أن ترد على ابتها المتكبرة إلا أنها

توقفت عن الكلام فجأة لأنها سمعت خطوات صعود أبو محسن وكانت هذي المرة مختلفة.

كانت صفية تجلس في طرف الغرفة تنتظر بلهفة قدوم والدها من الدكان، تداعب شعرها المتدلي على كتفيها، وتقول في نفسها: «أكيد أبوي يجي ويقول نبيل أتقدملي».

وفيما هي في أحلامها الوردية رأت والدها غاضباً عابس الوجه. وأم محسن تربت على كتفه وتقول: «إيش اللي صاير يا أبو محسن..؟»

خافت صفية وهربت إلى غرفتها ولحقتها نورية، حتى حسان خاف وذهب إلى المطبخ.



صباح ذلك اليوم الذي تلا حفل الرحماني، وفي تمام العاشرة صباحاً وصلت سيارة إلى مدخل شارع قابل، نزل منها نبيل بكامل أناقته، ونزل معه العم إبراهيم تاجر الأقمشة في سوق الندي، الذي يملك تلك السيارة ذات الطراز الجديد، فهو دليل عز ومكانة رفيعة.

تقدم الاثنان وفي طريقهما سلما على تجار شارع قابل حتى وصلا دكان العطار أبو محسن الذي طلب من الصبي أن يحضر شيئاً بالنعناع وقدم لهما الكراسي الخشبية ليجلسا عليها.

لم يكن قدوم العم إبراهيم غريباً على أبو محسن فهو صديقه

منذ زمن بعيد وكانوا جيراناً في دكاكينهم في سوق الندى، ولم يكن قدوم نبيل يرافق العم إبراهيم غريباً أيضاً، فالعم إبراهيم كان صديق والد نبيل رحمة الله عليه، الذي أوصاه بولده عند موته، كان نبيل يعمل كصبي عند العم إبراهيم حتى كبر وأرسله العم إبراهيم ليدرس في أمريكا.

لم يكن كل ذلك غريباً، لكن الغريب هو قدوم نبيل لكان أبو محسن في سوق قابل وهو في كامل أناقته، وعلامات الحيرة ترتسم على محيا أبو محسن ممتزجة بامتعاض من وجود نبيل، وجعل يتجاهله طوال الوقت حتى قال العم إبراهيم: «اليوم أنا جاي مع ولد صاحبي الله يرحمه واللي هو بمثابة ولدي نخطب بتكم صافية».

انفض أبو محسن فجأة من مكانه قائلاً: «والله ما عندنا بنات للزواج. وسلامتكم».

قام العم إبراهيم ونبيل مع قيامه المفاجئ ثم اقترب العم إبراهيم يحاول تهدئة صديقه وجاره القديم: «يا أبو محسن صلي على النبي نبيل أغير. نبيل الآن شاب ويدرس في أمريكا. و».

قاطعه أبو محسن محتدّاً: «والله ما أتوقعت يا إبراهيم تيجي تطلب مني طلب زي هذا، بدل ما تطلب إيد صافية لولدك المتربي تطلبه لهذا ال».

«بحق الجيرة يا صاحبي لا تكمل. الزواج قسمة ونصيب. و».

«زي ما قلت الزواج قسمة ونصيب. ومالكم نصيب عندنا. وأنا استأذن دحين عندنا باب رزق».

رد العم إبراهيم معاتباً: «والله ما اتوقعت تردني كده يا صاحبي. لكن مسموح».

وأشار لنبل وقال: «يالله يا ولدي. مالنا نصيب».

فور انصرافهما وتحرك السيارة من مدخل باب قابل جاء بعض التجار قائلين: «صلي على النبي يا أبو محسن إيش صاير صوتك واصل لنهاية الشارع؟»

تجمعوا حوله حيث قال أبو محسن بعصية: «آخر زمن. هذا الولد الصايح. الضايح يجي يطلب إيد بنتي».

اقترب منهم تاجر ذهب وهو جار أبو محسن بعدة دكاكين وهو يقول: «هدوا النفوس يا جماعة. إيش حصل؟».

أكمل أبو محسن بصوت عالٍ: «يعني اللي مزعلني جاري وصديقي إبراهيم من أيام سوق الندي اللي ياما يشتكي زمان من اللي اسمو نبيل ومن شقاوته بس كان متحملة عشان ولد صاحبه رحمة الله عليه. يجي يخطب بنتي له، هذا بدل ما يخطبها لولده الخلق».

صار الكل يربّت على كتف أبي محسن الذي ألقى بجسده على الكرسي وقال وهو يمسح عرقه: «رفعولي الضغط. هذا نبيل اللي

ما يصلي صلاة واحدة في المسجد وكم مرة شافوه عيال الحارة يشرب تنن⁽¹⁾ هذا الضايح اللي ماله مستقبل اللي نفسه إبراهيم ارسله لأمریکا علی حسابہ عشان بس يرتاح منو».

ردد الجميع «بالله خلاص يا أبو محسن مو مستاهل الموضوع.

رديتهم والسلام. لا تزعل نفسك بالله عندك السكر».

قال أحد الرجال للصبي: «روح جيب موية باردة لعمك يا ولد».

وكان الكل يربت على كتف أبو محسن ويواسيه.



وقف نبيل مع العم إبراهيم أمام باب بيت ستي حسنية وأخته تسمع من خلال الروشان صوت العم إبراهيم: «يا ولدي أنا رحت عشان خاطرك. قتللك ما راح يعطيك صفيه إنت أصريت. يا ولدي أنا أعطيت واجبي، قول لستك حسنية تدورلك عروسة.

البنات على قفا مين يشيل. إذا ما لقيت في جدة خللي أختك زكية تلاقيلك بنت من بنات مكة يا كثرهم. وأنا أقوم بمقام والدك وأخطب معاك».

كان الضيق باديا على العم إبراهيم.. كما أن نبيل يعرف أنه بموقفه وعناده تسبب في إفساد الصداقة بينه وبين أبي محسن.

لكنه لم ينطق ببنت شفة. وعندما ودعه العم إبراهيم بالسيارة.

(1) تنن: التبغ وهي الكلمة التركية (دوتن) أي الدخان.

مشى مسرعاً. حتى إن أخته زكية كانت تناديه وتقول: «نبيل أطلع. نبيل تعال إيش صار».

لم يعرها أي اهتمام.. ويسرع الخطى بين الأزقة حتى وصل مرة أخرى عند مدخل شارع قابل. محاولاً أن يتوارى عن الناس حتى لا يتبهوا له.

لم يكن يعرف لماذا فعل ذلك؟! ربما لأنه يريد أن يسمع من أبي محسن أسباب الرفض رغم درايته الكاملة بها، فنبيل كان مثالا للشباب الوسيم الذي يخطف قلوب البنات، وبسبب موت والديه المبكر، وبدلاً من أن تخلق منه هذه المأساة إنساناً يتحمل المسؤولية فقد حدث معه خلاف ذلك، كان شاباً مستهتراً يشعر أن كل شيء يجب أن يأتي إليه راغماً. كثيراً ما استدعت مدرسته العم إبراهيم بسبب شقاوته، وكم من المرات طُرد، وتوسط العم إبراهيم ليعود مرة أخرى للدراسة، وكم من المرات ضُرب بسبب معاكساته للبنات، حتى أرسله قبل عدة أعوام إلى مصر، لكن مصر أيضاً لم تسلم منه، فالذين ذهبوا معه اتصلوا بالعم إبراهيم وأخبروه أنه يتورط في علاقات غير شريفة مع راقصات في مصر، فذهب العم إبراهيم وأحضره. وتعب معه كثيراً. حتى أخبره قبل سنة أنه أصبح عاقلاً ويود أن يدرس في أمريكا. أمريكا التي كان يحلم بها منذ كان صغيراً ولا يعرف عنها سوى بعض الأغاني التي كان يرددها لفرق أمريكية.

يتذكر نبيل عندما كان صغيراً وقبل فترة فوران الشباب أثناء

عمله كصبي عند العم أبي ابراهيم، كان من عادة تجار الأقمشة أن يرسلوا فاتورة⁽¹⁾ لسيدات البيوت عن طريق الصبيان، ذات يوم ذهب لبيت أم محسن، فظهرت له صفة صدفة، وكانت آية في الجمال. هي أيضاً أعجبت به من أول نظرة، كانت تقف خلف والدتها تنظر إليه، لم يستطع أن يشيح بعينه عنها حتى اختارت أم محسن عينة قماش وقالت: «أبغى ثلاثة أمتار من هذا».

برغم عربدته إلا أن سهام حب صفة اخترقت قلبه ولم يكن يعرف إن كان هذا حباً أفلاطونياً أم ماذا؟! حتى تجرأ قبل 3 سنوات وأرسل لها أول رسالة حب عن طريق زكية أخته، فاكتشف أنها تبادلته الحب. وعندما ذهب إلى مصر علم أنها حزنّت على فراقه، فلم يستطع أن يكمل دراسته هناك وعاد مرة أخرى، وعاد الأمل في قلب صفة.

كانت زكية قد تزوجت قبل سنة، وقرر نبيل ألا يعيش مع جدته ستي حسنية وحده، فالحياة من غير أخته لا تطاق مع جدته. فقرر الذهاب إلى أمريكا. علم أن صفة ستنتظره. وعاد ليخطبها.

ولم يخطر بباله قط أن أبا محسن سيرفضه بهذه القسوة.



اشتدت حرارة الجو. حتى اضطر الناس أن يزدوا سرعة المراوح. كان بعضهم ينادي «السقا» ليشتروا منه بعدة قروش

(1) فاتورة الأقمشة هي عينة صغيرة من مجموعة الأقمشة تربط مع بعضها ترسل إلى السيدات في بيوتهن ويخترن منها ليوفر على السيدات الحضور إلى السوق بأنفسهن.

قليلاً من المياه. ليصبوه أمام محلاتهم. حتى يعمل على تلطيف الجو قليلاً.

قال أبو محسن للصبي الذي يساعده وهو يمسح: «يا ولد افتح المحل لين الليل وبعدين قفله وجيب المفتاح».

خرج أبو محسن من شارع قابل يتبعه نبيل دون أن يشعر.

وتتبع خطواته خفية حتى وصل سوق الندي وتوجه أبو محسن إلى صديق عمره عم عثمان.

كان عم عثمان يعتبر شيخ العطارين في جدة ولكن لم يكن يملك المشيخة، وذلك بسبب احترام كل العطارين لشيخ العطارين بمكة، ولكنهم جميعاً يحترمون العم عثمان فهو بالنسبة لهم شيخ

العطارين رمزياً وليس رسمياً، يقصده الجميع ليحل خلافاتهم ويطمئن على أمورهم في مهنة العطارة. جلس أبو محسن أمام عطارة العم عثمان وقال: «والله جيتك بخبر مضايقني».

وبدأ أبو محسن يقص على مسامعه ما تسبب في إغضابه وهو خطبة العم إبراهيم لصفية، فاقترب نبيل بهدوء من خلفهم حتى يسترق السمع.

قال أبو محسن بعصبية: «هذا الولد اللي ما يصلي. هذا نبيل اللي ما بقى بنت في كل الأزقة اللي يعاكسها. هذا الكل يقول عنه إنه يشرب بس ما يعرفوا من فين يجيب الحرام اللي يشربه».

كانت الشمس تميل إلى الغروب في اللحظة التي استمع فيها نبيل لأول مرة رأي أحدهم فيه، وكم كان ذلك قاسياً.

عاد نبيل بهدوء إلى منزله في حي المظلوم، سمع الأذان من مسجد الشافعي في سوق الجامع. فبدى مذهولاً يفكر هل عليه أن يدخل المسجد ليصلي أم لا!!

في بيت أبو محسن جاءت نورية بهدوء تريد وضع صينية العشاء وبها خبز وزيتون وجبن وشاي، صرخ فيها أبوها: «قومي شيلي الأكل من قدامي. مالي نفس آكل».

حاولت أم محسن أن تهدئ من انفعاله قليلاً لكنه صرخ: «آخر زمن. وأنا اللي كنت مستني من كم سنة يطلب صفية لولده.

إيش معنى؟ ولده الأخلاق يستاهل أحسن من بنتي وأنا مستواي مستويات طايحة زي هذا الضايح. لا هذا وهو أعز الناس لقلبي».

فقالت: «خلاص يا أبو محسن معاك السكر».

لكنه واصل الصراخ بقوله: «اللي قاهرني إنو هو يعرف أخلاق الولد. هو اللي ياما كان يجي يشتكيلي منه».

أما صفية فكانت تستمع إلى صراخ والدها من خلف الباب وأنفاسها المتلاحقة المكتومة خوفاً توشك أن تأخذ روحها معها.

فلتعترف. إنها تعلم أن نبيل سيء السمعة. لكنه الحب.

عندما يخترق الفؤاد يتملك الإنسان. ويجرد المحبوب من كل العيوب. ويزينه في نظر الحبيب.

كانت قد رآته مرتين. مرة عندما أحضر عينات الأقمشة وكانت صغيرة. والمرة الأخرى كانت بالأمس فقط. كم تغير نبيل. !!لقد أصبح شاباً أجمل وأشد وسامة. فسارت في طريق الحب لأنها تعرف أن الحب يفتت الصخر. ويحول الوحش إلى حمل وديع.

فكيف لنيل الملاك في نظرها.. كيف لا يراه الناس بعيونها؟!

انفضت صفية على صوت صراخ أبيها العالي: «هذا نبيل مرة كانوا يمسكوه يدخلوه السجن لولا أننا كلنا رحنا كلمنا العسكر واطرجيناهم.. عارفة ليش يا أم محسن؟»

هنا وضعت صفية أصابعها في أذنيها وصكت أسنانها وقلبها يعتصر مرددة في نفسها: «لا. لا.. ما أبغى أسمع. أنا أحب نبيل». جاءت نورية تحاول أن تواسي صفية إلا أن صفية قامت وركلتها قائلة: «قومي من وجهي».

ثم ذهبت تدفن أحزانها وجسدها تحت ملائتها على السرير الخشبي الذي يصدر صوتاً كلما تحركت عليه، وهي تمنى لو كان ما تعيشه مجرد كابوس توشك أن تستيقظ منه.



استيقظت صفية كأنها إنسانة أخرى، كانت الأحداث التي عاشتها أمس متلاحقة وشديدة الوقع عليها، فمن فرحة شديدة إلى ليلة حزينة صادمة، لم تستوعب ما حدث، واسودّت الدنيا في عينيها.

قامت بعد أن عرفت أن والدها قد تناول إفطاره وخرج، وحسان

ذهب للمدرسة أيضاً، ونورية تساعد أمها، التي لم تعرها اهتماماً عندما رأتها وكأن شيئاً لم يكن. ولم تسألها نورية إن أرادت أن تفطر أم لا فهي مازالت غاضبة بسبب صد أختها وقسوتها، قالت أمها: «صحيناكي صلاة الفجر وما صحيتي».

لأول مرة كرهت صوت أمها. ثم نظرت إلى نورية التي أعطتها ظهرها تتحدث مع والدتها عن ذكرياتها وذكريات الأيام الماضية. وكرهت نورية. وكرهت ضفيريته.. جلست على زاوية الصفة فوق المقعد. تلك الزاوية التي أحبت الجلوس عليها منذ صغرها. نظرت إلى الغرفة. غرفة صغيرة كئيبة، يأكلون فيها،

ويجلسون فيها، وينام أبوها فيها أحياناً وتمسد أمها رجليه. فيها تخطط الأم بعض الملابس التي تقطعت بماكينة عتيقة، وفيها مكواة تعمل بالفحم الحار، كما يدرس حسان هنا أيضاً، ونورية تكتب في الدفتر. إنها تكره هذا المكان. تكرهه بكل تفاصيله.

فجأة سمعت صوت تصفيق من تحت الدرج، وهذه عادة السيدات عندما يصلن لبيت يصفقن كي لا تُسمع أصواتهن.

فخرجت أم محسن وقالت متعجبة: «اتفضلوا. مين؟».

لقد تعجبت من الأمر فهم بالتأكيد ضيوف غير عاديين، فلو كانت جارتهم أم ياسين كانت ستصعد مباشرة وتتخذ جلستها في صدر الغرفة!!

صعدت وكانت زكية مع طفلها وجدتها ومعها أطباق من الحلوى التي صنعتها بنفسها. جلستا، ولم تستطع أم محسن أن

تبتسم لهما رغماً عنها. وقبل أن تبدأ ستي حسنية بالحديث قالت أم محسن بعدما صبت الشاي وأحضرت بعض المكسرات: «والله جيتك عزيزة بس أبو البنت مو موافق. والزواج قسمة ونصيب».

ردت ستي حسنية وهي تومئ برأسها: «الجواز قسمة ونصيب صح يا بنتي».

ثم استأذنت زكية ووضعت الطفل عمر مع جدتها وذهبت لرؤية صفية، التي كانت في أسوأ حال. أخرجت من داخل فستانها رسالة وقالت بصوت خفيض: «نبيل قال أعطيك هذا». وقال إنها آخر رسالة منو».

وخرجت مسرعة حتى لا تشك الأم في شيء وقالت: «ما نبغي نطول عليكم بس جينا والله يا استيتة⁽¹⁾ نسلم بس».

شعرت أم محسن بالخجل أخيراً فقامت تحاول أن تظهر الكرم: «لا ما تروحوا كده خلوكم قبل شوية أنا ونورية طبخنا والأكلة على النار خلوكم ما شبعنا منكم».

إلا أن زكية حملت عمر وهمت ستي حسنية واقفة وانصرفتا. شعرت أم محسن بالخجل لتصرفها، لكنها كانت في مثلاً للزوجة في ذلك الوقت، فالزوج له هيئته وكلمته وليس لها أن تجادل زوجها، أو تشاركه في القرار، فالزوج هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة وعلى الزوجة السمع والطاعة والرضوخ.

«صفية. إنتي تعرفي إيش اللي صار وكيف أبوكي رفضني».

(1) استيتة كلمة تقال للأخت الكبرى أو من في حكمها وهي دليل الاحترام والتوقير والأدب.

إذا كنتي تحبيني. اهربي من بيت أبوكي وأمك. تعالي اليوم قبل المغرب لبيت ستي حسنية، زكية موجودة قتللها تستناكي وتضيفك. أنا راح أكلم العمدة وأجيبه ونتجوز بكرة. إذا ما جيتي بيت ستي. أعرف إنك ما تبغيني خلاص. ومع ذلك راح أستناكي. أحبك. نبيل».

كانت الرسالة بمثابة طوق نجاة ألقى لصفية قبل أن تغرق وتفقد عقلها. قرأت الرسالة حوالي مائة مرة. تعيد وتقرأ. وتخبطها وتقرأ. لم تقرر بعد ماذا ستفعل. لكنها حتماً تعرف أنها تحب نبيل بجنون. خاصة بعدما حدث أمس. عندما أمسك بكفها وقبلها. تتذكر ملمس شفاهه على كفها. إنها تحب. هذا هو كل ما تعرفه، الحب الذي لا يخضع إلى عرف أو قانون.

الحب الذي يهد الجبال. ويجعل من المستحيل ممكناً. يتجاوز كل التحديات ويجابه الأمواج العتيدة.

كانت تتابع الظلال والنور من خلال فتحات الروشان. وتعرف تماماً الظهر والعصر والمغرب من خلالها. كانت الشمس تتحرك. من هنا لهنالك. وتعلن اقترابها من المغيب.

لم يدرك أحد حجم الأعاصير التي تجتاح صدرها. والأفكار التي تعصف بذهنها.

وبينما تتحرك بقع النور والظلال ببطء. أحضرت بقشيتها ووضعت قرآنها وبعضاً من ملابسها. ثم سحبت عباءتها.. ولبستها. إنه المغرب يقترب. كان حسان يلعب في الحارة، وأمها

ونورية في المطبخ. إنها نورية التي كبرت على التقاليد وعلى الصواب والخطأ وقوانين الأجيال السابقة، تنتظر نصيبها لتتزوج كما يريد أهلها. قالت صفية لنفسها: «أما أنا لا».

تسللت بهدوء من الغرفة. ونزلت على أطراف أناملها وغطت وجهها وخرجت. كانت دقات قلبها تتسارع، والأدرينالين يتدفق في جسدها بقوة لا تضاهيها سوى قوة حبها لنيل. خرجت كالعمياء لا ترى طريقها.

أصبحت الحارة كالمتاهة. كل الطرقات التي كبرت عليها وكانت تحفظها عن ظهر قلب أصبحت غريبة عنها. فلا زقاق عرفته ولا طريق أدركته. كانت تمشي بسرعة. من زقاق إلى زقاق. شعرت بالدُّوار. وتقطعت أنفاسها. كانت تمشي وتمشي، لا تعرف أهو الشمال أم الجنوب. صارت تكلم نفسها وتردد: «حارة المظلوم. حارة المظلوم».

خطواتها لها وقع كبير. وطرف عباؤها يسحب الأتربة. فكم من المرات وقعت. وكم من المرات اصطدمت بالجدران؟! وكم من المرات وقفت أمام بيت تعتقد أنه بيت زكية ونيل. أصوات الأطفال الذين يلعبون قبل المغرب قوية في أذنيها. كانت تشعر أن الكل يراها وهي تقوم بالجرم المشهود. إنها تهرب. تترك البيت الذي طالما كرهته. تجر جر جسدها المرهق من التعب والجزع. تبحث عن مأوى. تركت خلفها البنت المطيعة التي ترضى بالقدر. تركت وراءها السمعة واشترت الحلم.

توقفت لتلحق بأنفاسها التي تكاد تسبقها جرياً، فرحت وهي تلمح مسجد العلوي في حارة المظلوم، ذهبت إلى هناك ترتعد فرائصها حتى وصلت لبیت زكية وصعدت وهي تلهث، واستقبلتها زكية باستغراب.. «اتفضلي يا صفية».

وهنا ارتفع الأذان «الله أكبر الله أكبر» أذان المغرب يتردد صدها في الأرجاء.

2

صباح جميل ليوم من أيام مدينة جدة ووسيلة النقل الأساسية هي الأقدام حيث البيوت متلاصقة يحضن بعضها بعضاً، كما القلوب متجاورة متآخية، الكل يسلم بيده وابتسامته لمن يعرف ولمن لا يعرف.

أحد الصبيان يساعد عمه في فتح باب محله في شارع قابل وهو يفرد الأقمشة ويرصها ويقول: «عمي فريد والله مرة نحنا محظوظين محلنا من كم سنة هنا. كثيرين يبغوا ينقلوا ما بيلاقوا محلات للإيجار يا دوب واحد راح يفضى قريب».

فرد عليه العم فريد بائع القماش: «والله يا ولدي ورثت الدكان من أبوي».

وأكمل حكايته وهما يرتبان الأقمشة وأخبره أن الشيخ سليمان قابل كان رجلاً ذكياً اشترى الشارع من الشريف الحسين في الثلاثينيات وكان الشارع مكشوفاً وقتها فتعاقد مع شركة ألمانية من أجل التسقيف.

وأكمل القمّاش: «تابعت العمل بنفسي وكنت أشوفهم يغطوا الشارع على أحسن ما يكون في ذلك الزمان».

فقال الصبي: «والحمد لله أن أبوك على طول استأجر هنا».

فرد القمّاش: «طبعاً هذا أفضل مكان نفتح فيه باب رزق يا ولدي».

لم يكتف آل قابل بتسقيف الشارع ولكنهم استوردوا ماكينة كهربائية ضخمة وأدخلوا الكهرباء والتهوية إلى كل دكان ومكتب في الشارع.

أكمل العم فريد: «وكان أبوي من الناس اللي اتدافعوا للاستئجار في واحدة من دكاكين قابل».

جاءت زبونة تتفقد بعض الأقمشة في دكان الأقمشة المجاور:

«بكم هذا يا ولدي؟»

رد البائع واسمه صادق بهدوء وهو يرتب أقمشته: «يا خالة أنا استفتحت⁽¹⁾ والحمد لله، إيش رأيك تروحي لجاري عمي فريد. هنا على يساري. عنده نفس قطعة القماش هذي وما راح يقصر معاكي».

فرد عليه العم فريد: «بارك الله فيه يا صادق. والله إنك ولد أصول».

(1) الاستفتاح: مصطلح متداول بين التجار يدل على أن التاجر قد باع أول شيء له منذ بداية اليوم.

هكذا كان الناس. يحبون الخير لبعضهم. ولا ييخلون ولا يجزعون. فإن لم تتوفر القطعة التي تريدها الزبونة يرسلها التاجر إلى دكان جاره.

المحبة والتآخي سيمتهم. كلامهم منمق وأنيق وجو البراءة يعم شارع قابل وكل أسواق جدة. جلس صادق أمام دكانه ينتظر مرور صديق عمره محمود والذي يملك والده دكاناً في شارع قابل يبيع فيه الأدوات المنزلية، تعود أن يمر كل يوم أمام دكان صادق يتبادل الحديث قبل أن ينصرف إلى عمله في البريد في مكان بعيد عن شارع قابل.

«يا هلا محمود اتفضل الشاي لسة حار».

«صباح الخير صادق. كيف حالك اليوم؟».

تنهد صادق: «والله ما أخفيك أُمي متضايقه من موقفني من أخوي بكر، بالذات بعد ما نقل من الطائف من سنة وجا يسكن مع أُمي. ليتة ما نقل يا خي».

حاول محمود أن يهدئ صديقه: «إلا الوالدة يا صادق. إلا الوالدة. بعدين كم سنة الآن؟ سنين طويلة وإنّ مقاطع أخوك بكر ما يصير».

تعود قصة خلاف صادق مع أخيه الأكبر منه سنّاً بكر لعدة سنوات مضت، منذ أيام دراستهم سوياً في مدرسة الفلاح، حيث اشتهر أخوه الأكبر بأن لديه ميولاً جنسية شاذة مع الأطفال، وكان

هذا يسبب ضيقاً كبيراً لصديق الذي كان يهتم بأمه بعد وفاة أبيه، وتحمل نفقات البيت وخرج مبكراً من المدرسة وأصبح تاجراً.

كان ينكر أخوته لبكر السيئ الخلق أمام الناس، وكم من المرات دخلا في عراك بالأيدي، حتى شب وشاب وأصبح صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في المنزل، حتى جاء اليوم الذي طرد فيه أخاه من البيت وسط بكاء أمه، ولسنين طويلة عاش بكر في مدينة الطائف وعمل بالتدريس هناك.

كان صادق سبياً في مقاطعة بكر لوالدته لسنين طويلة، خلالها تزوج صادق وصار لديه أولاد أحدهم في العاشرة واسمه سعيد وبنت في الثامنة من عمرها. دكانه حيوي مع مجموعة دكاكين القماش في شارع قابل، ويعيش مع زوجته في منزل أمه ليرعاها.

قبل سنة توسط أهل الخير ليصلحوا بينهم وبين بكر الذي قد تغيرت حاله وأصبح هزياً وتوسم فيه الناس الهداية؛ فنقل وظيفته لمدرسة في جدة. وأصبح يعيش مع أمه، فاضطر صادق أن ينقل زوجته وابنيه من منزل والدته واستأجر بيتاً مجاوراً لكي يرضى والدته ويحمي عائلته من أخيه في نفس الوقت.

برغم تبادل السلام بينهما إلا أن ذكريات الماضي السيئة مازالت تدور في ذهن صادق، خاصة المواقف المحرجة التي تعرّض لها بسبب أخيه وسمعته السيئة، فيسلم تارة ويتجاهل تارة ويكبت جماح غضبه أغلب الوقت.

ربما كانت فكرة نقله للطائف في الماضي فكرة ممتازة لأنه

وصل به الحال أن يشتكي للشرطة لكي يأخذوا بكرأ ويتخلص منه ومن عاره. ارتاح صادق كثيراً لسنوات حتى كاد ينسى أن له أخاً، ولكنه لم ينعم بهذا الهناء كثيراً، فطالما بكت والدته وهي تقول:

«جبتكم الاثنين من رحم واحد».

كانت الأم نقطة ضعف صادق، حتى رضخ قبل سنة لنقل بكر إلى جدة مرة أخرى. تعجب عندما رأى الشيب قد اشتعل في رأس أخيه ولحيته، وربما شفعت تلك الشعيرات البيضاء له عند أخيه الذي لم يصدق أنه تعافى من مرضه الشاذ. كان يترقب منه أي خطأ حتى يثور في وجهه وكان دائماً يردد: «لو قرب من بزروتني⁽¹⁾ راح أقتله».

كان محمود متفهماً لصديقه صادق لكنه قال: «يا صادق. هدي هدي.. تذكر أعطيت كلمة للعمدة إنك ما تتعرض لبكر لو ما بدر منه شيء. أهو سنة وما طلع منه العيب. هدي النفوس يا صادق».

رد صادق بأهة حارة: «ما ني قادر أسامحه. والله راح اقتله لو بس مسك أولادي بطريقة مو سليمة. أصلاً الأولاد قتللهم لو يشوفوه يقلبوا وجههم ويرجعوا البيت. أحياناً يشتاقلو لجدتهم اللي ربتهم واللي كانوا يعيشوا معاها في بيت واحد قبل ما أنقلهم».

رد صديقه: «يا رجال صلي على النبي إيش الكلام هذا.. هذا مهما كان عمهم. إيش تفكيرك هذا. واصلك بعيد مرة».

(1) البزورة: الأولاد.

وفجأة قاطعه صادق: «والله يا خي أخذني الكلام ونسيت أسأل عن ولدك الرضيع، إيش أخباره؟»

رد بحزن: «والله الوالدة ما بتقصر بتربيته، صار عمره دحين أربعة شهور».

مرت لحظات من صمت ثقيل حتى قطعه صادق بقوله: «ندمان؟»

قاطعه بحدة: «أعوذ بالله، مستحيل وحدة عاملت أمني بسوء ما تناسبني».

برغم كل محاولات الصلح التي تطوع بها كثير من الناس إلا أن موقف محمود ظل واضحاً ولا رجعة فيه، فتلك الزوجة التي لم يعيش معها سوى بضعة أشهر جعلته يكره الحياة.

كانت سليطة اللسان كسولة وتعامل والديه بجفاف، وكثيراً ما كانت ترجوه حتى يترك بيت أهله لتنفرد به، لكن محموداً لم يسمح ولم يرضخ لنواياها المغرضة، حتى حملت فكانت تستعطفه بحملها إلا أن محموداً كان يعرف تماماً مكائد النساء فلم يكن الحمل ورقة ضغط قوية عليه.

عاد من عمله يوماً ليشاهد زوجته وهي ترمي إبريق الشاي على حماتها وتصرخ في وجهها، فكان ذلك الموقف الشعرة التي قصمت ظهر البعير، فطلقها بالمعروف حتى وضعت حملها.

برغم كل الآلام التي واجهتها أم محمود إلا أنها إنسانة ضعيفة

جداً. لا تقوى على رد الإساءة بالمثل، وكم أذاقتها زوجة ابنها المتسلطة مَرَّ الآلام، لكنها كانت تكتُم في قلبها، حتى عندما ترى نفاقها أمام محمود.

وعلى الرغم من أنها سامحت زوجة ولدها على رميها إبريق الشاي إلا أن محموداً لم يسامحها، فمحمود الذي يحب أمه ويبرها لم يرض أن يعيش دقيقة واحدة بعد ذلك مع تلك الزوجة. حتى إنها وضعت مولودها في بيت أهلها.

وفي يوم ما استدعاه والد الزوجة بعد ولادة ابنه، وكانت أم محمود تدعو الله بلهفة أن يقف في صف ولدها ويعينه على من يظلمونه أو يريدون به المكيدة.

كان المطر يهطل تلك الليلة على غير عادة مدينة جدة. مع صوت الرعد فُتح الباب، ودخل محمود مبللاً يحمل الرضيع قائلاً: «فطمته أمه. وما يبغوه. قالولي خذه».

كان الرضيع يصرخ من شدة الجوع فحملته الأم ووضعته على صدرها وصارت تبكي وتمسح عن وجهه البلل.

مرت أربعة أشهر والرضيع يكبر في أحضان جدته ويملاً البيت حناناً وبركة.



قال محمود لصديق: «كنت أبغى أقلك شي من أسبوع بس لساني عاقدني».

قال صادق: «بيننا يا محمود قول يا أخوي!».

قال محمود ممتناً: «كنت بأقولك شكراً لأنك ما رحت فرحها الأسبوع الماضي مع إنك وأهلك كنتم معزومين أكيد».

فرد صادق: «أفا عليك يا صاحبي كيف أروح أو أخللي الأهل يروحوا إنت صديق عمري وأخذ بخاطرك ولا يهملك».

قال محمود وهو يفكر: «والله كنت طول الأربعة شهور أقول ليش ما يبغوا الولد ما جا على بالي إنو أهلها بيجوزوها».

رد صادق مواسياً صديقه: «بس إنت أهم شيء ما تتضايق. الله يخليك الوالدة الوالد وولدك».

يأتي زبون فيقوم صادق ويفرد الأقمشة. فاستأذن محمود ومشى في شارع قابل إلى أن وصل لدكان أبيه الطيب. سلم على والده باحترام وساعده قليلاً في ترتيب الأواني المنزلية والكاسات والقدور قبل أن يذهب لعمله بعيداً عن شارع قابل، فهو من القلائل الذين يعملون عملاً حكومياً ومعظم رجال جدة كانوا تجاراً.

* * *

«أستاذ.. أستاذ».

قالها أحد الطلبة في الصف الخامس الابتدائي للمدرس النحيل ذي الشعيرات البيضاء على وجهه فانتبه بكر أنه في فصل من فصول الابتدائية في جدة الآن وليس في الطائف.

نظر إلى وجوه الطلاب ذوي الأعوام التسعة ثم رد بهدوء:
 «طيب. اليوم راح ندرس عن».

تساءل في نفسه كم سنة مرت وهو يدرس نفس المادة ونفس الصف، وكم من سنة يشعر أن الدنيا كلها تسير للأمام إلا هو يسير للخلف، كانت الوحدة قاسية عليه. يتذكر بيته الصغير القذر في مدينة الطائف، ويتذكر أهالي الطائف وهم يحاولون تزويجه، أصبح عمره 36 عاماً ولم يتزوج، في مقاييس تلك الفترة، فاته قطار الزواج وعلامات الاستفهام تدور حوله.

عاد يحمل حقيقته الجلدية مقطعة الأطراف، ويمشي حتى وصل لباب منزل والدته في حارة اليمن، لماذا يشعر بالخوف كلما اقترب من الباب؟! لماذا يرتجف خوفاً ويهلع كلما رأى أخاه صادقاً، أخوه أصغر منه بعام لكنه أصبح رجلاً حقاً، تزوج ولديه عائلة مكونة من زوجة وطفلين. وله تجارة تدر له رزقاً حلالاً، دائماً يشعر بأنه معاق وعاق أمام أخيه. تذكر أنه في الماضي أراد أن يضره لكنه لم يفعل. أحياناً كانت تحدثه نفسه أن يقتله ويرتاح إلا أنه لا يستطيع.

إنه شاذ لكنه ليس مجرمًا وحتى وإن قتل يوماً فلن يقتل أخاه أبداً.

وصل إلى بيت والدته في حارة البحر التي تقع خلف باب الفرضة⁽¹⁾ واستقبلته والدته بحب. مازالت كلما تراه ترق عينها

(1) الفرضة: كلمة تركية الأصل وتعني الميناء.

حينئذٍ لولدها. أما هو فقد أصبح قلبه قاسياً عليها، سنوات معيشته في الطائف ومقاطعته لها جعلته جافاً الطبع معها، لكنها لم تغضب لأنها تحبه. فهو ولدها وقد خرج من رحمها كما تقول.

قالت: «اتفضل يا ولدي بكر اتفضل سويت لك غدا».

جلس بكر دون أن ينبس ببنت شفة منحني الظهر وأخذ يشرب شوربة الحب: «ما جا رمضان يا أمي لسة بعد أسبوعين ليش سويتي شوربة حب؟»

ردت الأم بحنان وهي تربت على كتفه: «اليوم جارتني أهدتني بهارات شوربة الحب في صرر قلت خليني أجربها يا ولدي».

فأبعد يدها عن كتفه: «أنا مو ولد صغير يا أمي. لا تعامليني كدة».

فردت بهدوء: «طيب يا ولدي حبيبي إيش رأيك أجوزك؟»

البنات ماشاء الله مليونين ومن عوائل، إنت أختار بس وأنا أخطبك، أجوزك أحلى واحدة في الحارة».

كان يحتسي الشوربة بصوت مرتفع برغم أن الشوربة ليست ساخنة جداً.

فأكملت الأم بوجل: «سمعت عن بنت العطار أبو محسن يقولوا عنده بنتين صفية ونورية، ويقولوا أنو صفية مرة حلوة إيش رأيك أروح أطلب إيدها. جمال وعيلة والأم فتحية طيبة مرة و».

قاطعها محتدّاً: «ما أبغى أتجوز. ما أبغى».

ردت برجاء: «يا ولدي صار عمرك 36 وأنا نفسي أشوف بزورتك. كل ما أشوف أولاد أخوك صادق، أدعي ربنا يعطيني طولة العمر وأشوف بزورتك».

رمى بكر الملعقة في الزبادي وصرخ قائلاً: «إيش قصدك يا أمي. قولها.. قولها».

اغرورقت عيناها بالدموع وحاولت أن لا تغضب منه وكتمت أنفاسها لكنه صرخ: «أنا تركت العيب من زمان. ليش متم راضين تصدقوني.. من زمان».

ردت بحنان: «أعرف حبيبي يا ولدي أعرف. عداك العيب». ثم قام ودخل غرفته وأغلق الباب الخشبي. ليتمالك أعصابه. أما الأم فأخذت تكفكف شلال الدموع المنهمر من عينيها ورفعت يدها تتضرع للإله: «يا رب اهدي ولدي وهدي سره».



في اليوم التالي وكالعادة فتح حقيته الجلدية المهترئة وأخرج دفتر الدروس. طرق المدير الباب مصطحباً معه طفلاً جديداً: «أستاذ بكر هذا عبد الله طالب جديد نقل من مكة».

كان هنالك ماصة⁽¹⁾ وكوسي فارغ لطفل قد ترك المدرسة قبل فترة ليلتحق بالتجارة، فجلس عبد الله فيها بهدوء وأكمل المدير

(1) الماصة هي طاولة الدراسة في الفصول الدراسية.

قائلاً: «سجل اسمه عندك في دفتر العلامات أستاذ بكر». وأملاه الاسم كاملاً ثم انصرف.

عاد الهدوء للفصل وقد تجمد الطلاب خوفاً من المدير. فنظر بكر للطفل عبد الله وأعجب بجمال عينيه فقال: «من فين إنت من مكة يا ولد؟».

رد بقوله: «من المسفلة».

لم يشح بكر نظراته عنه: «ليش نقلتوا جدة؟».

فرد الطفل بخوف وحزن: «أبوي مات قبل كم شهر وأنا وأممي جينا نعيش مع خالي إسماعيل في جدة».

ونزلت دمعة من طرف عينيه فصرخ بكر: «يا ولد لا تبكي».

إنت بنت؟».

هز رأسه نافياً. وضحك عليه بعض الطلاب فصرخ بكر على الطلاب: «لا تضحكوا يا ولد منك لو».

ثم اقترب من الطفل وأعطاه منديلاً وشاهده وهو يمسح عيونه.

كانت عيونه جذابة.. حتى وهما حمراوان من البكاء. وقال لنفسه: «إن كانت عيون هذا الطفل بهذا الجمال فكيف ستكون عيون أمه؟».

وهنا تسلل الشر إلى نفسه.

شعر بكر بالشر. وعرف أن الشيطان هو من يغرسه في داخله.
إنه شر يزلزله. وتحرك الشر الذي يعتمل في نفسه ولا يُخبر به
أحدًا. شرٌّ جميل وحاد في آن واحد.

فقد الأستاذ بكر تركيزه. صار يتلعثم وترتجف أصابعه وهو
يكتب بالطباشير. ويضغط بالطباشير بقوة على السبورة. صار يغير
الألوان دون داعٍ. فيلتفت فجأة للوراء ويصرخ في الطلاب.

ويصب جام غضبه على أحدهم كي يختلس نظرة إلى عيني
الطالب عبد الله. بدأ يشكو من الجو الحار والرطوبة وينظر إلى
الشباك وكأنه مفتوح على جحيم.

تمالك أعصابه. وحاول أن يجمع شتات نفسه المبعثرة حتى
جاء وقت الصرفة. خرج الطلاب، وعلت أصواتهم وهم يحملون
حقائبهم منصرفين إلى بيوتهم. أخذ يجمع متعلقاته في حقيبته
الجلدية القديمة وهو يتساءل: كم من السنوات مازال يحتفظ بهذه
الحقيبة. ولماذا لم يغيرها حتى الآن؟!

خرج من الباب مع زحمة الطلاب. وبحث بعينه عن عبد الله.
رآه وقد توجه عند مدخل إحدى الحارات التي تتصل بالمدرسة
حيث تختبئ خلف زاويته سيدة تلبس عباءة. أخذت بيد عبد الله
وبدأت تسير.

لم يستشر قدميه التي تبعت خطواتهما من زقاق إلى زقاق. وهو
يتأمل جسدها الذي يتحرك داخل العباءة.

3

«السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله»

هكذا أنهى المصلون صلاة العصر رافعين أيديهم حامدين شاكرين. طالبين الرزق الحلال من الله سبحانه وتعالى. هنا مسجد «عكاش» الذي يقع غرب شارع قابل، أقيم المسجد قبل سنة واحدة من 1960 وقام بتجديد بنائه عكاش أباطة، ورُفعت أرضية المسجد عن مستوى الشارع بحيث يُصعد إليه بعدة درجات. نزل عليها المصلون مهللين مسبحين يبحثون عن أحذيتهم هنا وهناك.

برغم صغر باب المسجد إلا أن الوسع في قلوب الناس، فإن تدافعوا فهم يتدافعون بالمحبة، وإن تلامست أكتافهم فهم يتبادلون بها الأخوة والود، سرعان ما ترتسم على محياهم الابتسامة.

فيسألون عن الأحوال متعطشين للأخبار السعيدة. ويعبرون عن اشتياقهم لبعضهم وكأنهم لم يروا بعضهم دهرًا، برغم أنهم في حوارٍ متقاربة ودكاكينهم متلاصقة.

في المسجد كان هنالك رجل يصلي. وبكل خشوع وتضرع التفت عن يمينه وشماله قائلاً: «السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله».

كان أبو ياسين قد انتقل إلى شارع قابل فور إنشائه لأن الشارع ينعم بالكهرباء والتهوية، فتجارته تعتمد على بيع الأجبان والمخللات التي تحتاج للتهوية الجيدة لحفظها من التلف، وبرغم أن معظم التجار الذين انتقلوا كانوا من تجار القماش إلا أن محله المتميز كان ذا موقع مميز، فقد تعود جميع تجار شارع قابل أن يملأوا على دكانه عند انتهاء اليوم ليشتروا الجبن والزيتون والخبز للفطور أو للعشاء، يطعمون به أهلهم.

والسبب الآخر أنه. يبيع أيضاً الحلويات الحجازية مثل اللدو واللبنية وكذلك يوفر عيش الشريك⁽¹⁾ الذي يطلبه كل فترة ويأتيه طازجاً من المدينة المنورة.

أبو ياسين هو جار أبو محسن، وزوجته صديقة أم محسن «فتحية»، وابنته ياسمين صديقة «صفية» وابنه ياسين هو صديق لمحسن الأخ الأكبر من صفية والذي يدرس في مصر. كانت الخطة أن يذهب معاً للدراسة في مصر ولكن ياسين لم يذهب فقد أثر أن يجلس ويساعد أباه في تجارته، خاصة بعدما تركه الصبي «حمزة» ذوالأصول إفريقية والذي كان يعمل لديه.

وصل أبو ياسين دكانه الذي لا يغلقه وقت الصلاة. بل يربط

(1) عيش الشريك: هو خبز يشبه الدونت وعليه سمسّم اشتهر به أهل المدينة المنورة.

خيطةً من جانبي الدكان كدليل على أنه غير موجود، فالنفوس مطمئنة ولا خوف من السرقة، والوازع الديني في قلوب الناس كبير يمنعه أن يمدوا أيديهم لمال غيرهم، والثقة والأمانة سيما وجوه الناس.

تذكر أبو ياسين «حمزة» الذي كان في عمر ابنه ياسين، كان يتيمًا في الرابعة من عمره أخذه ورباه وجعله يخدم معه في تجارته، وأعطاه غرفة بأسفل بيته ليعيش فيها ويكون بمثابة الحارس لأهل بيته، حاله كحال البيوت آنذاك لديهم صبي يحرس البيوت ويقوم.



كان حمزة صبيًا طيبًا يستمع جيدًا لما يأمر به عمه أبو ياسين الذي لم يفهم حتى الآن لماذا تركه حمزة فجأة وأرسل رسالة شفوية مفادها: «لقيت شغل في مكة».

فجأة لملم حمزة ملابسه وأغراضه الشخصية في بقشة ورحل. تاركًا أبا ياسين في حيرة من أمره. سنتان ولم يتوصل أبو ياسين لإجابة، حتى يوم الفراق دمعت عينا أبي ياسين الذي فقد من يجعل قلبه ينبض بالرحمة والشفقة، وبرغم لبسه لحذائه إلا أنه يشعر بعد رحيل حمزة أنه حافي القدمين، عطشان برغم أنه يشرب، وصوت أحزانه في صدره كحفيف أوراق الشجر.

كان حمزة بالنسبة له كالابن، فعندما كانت أم ياسين تبكي أحيانًا:

«ما قدرت أجلك بزورة كثير يا أبو ياسين، بس ياسين وياسمين».

كان يرد: «عندي ولدين وبنت يا أم ياسين. حمزة ولدي».

تذكر أبو ياسين كيف خاصم ولده عندما رحل حمزة ظناً منه أن ابنه أغضبه، حتى بكى ياسين صارخاً: «يا أبوي ما سويت له شيء والله».

سأل زوجته أم ياسين أيضاً عن السبب فتحلف له أنها لا تعرف السبب الذي ترك من أجله حمزة البيت ورحل.

وصل أبو ياسين إلى دكانه في طرف شارع قافل ووجد ابنه ياسين يبيع بحماس وإخلاص «كيلو جبنة بيضا» «نص كيلو زيتون»

و«بالله إثنين عيش شريك» ورفع يده حامداً الله تعالى أنه رزقه بابن يشد به ساعده، ويجبر كسر خاطره عندما فارقه حمزة. يا ترى أين حمزة؟! لم يتصل به خلال الستين. هل تراه بخير؟

وبرغم أن أبا ياسين يحاول أن يتوقف عن التفكير به ويحرر نفسه من التساؤلات لكنه يجد نفسه يستسلم. إنه يشاق إلى ذلك الصبي الذي تركه وقد أصبح شاباً عمره 21 سنة، بملامحه الإفريقية

وشعره المجعد، وقطرات العرق التي كانت تتصبب من جبينه وهو يحمل كراتين المؤنة ويساعد عمه أبو ياسين في تجارته. كيف له أن ينسى عمه؟!!

كادت الدموع تنهمر من عيني أبي ياسين، ولكنه خبأها ومسح عينيه بطرف غبائه التي على رأسه وقال: «لا إله إلا الله. يا رب».

دخل دكانه وساعد ابنه ياسين في استقبال الطلبات. لا بد أن تستمر الحياة، والكرة الأرضية لا تتوقف من أجل أحد.

والآن سنعود سنتين للوراء وكان ذلك عام 1958، كان حمزة يجلس في غرفته في الدور السفلي لبيت كبير يملكه أبو ياسين، من أجمل بيوت حارة اليمن في جدة. كان يتململ فلا يخرج يلعب مع الأطفال في الحارة، فقد كان الأطفال يسخرون منه وينعتونه بأصوله الإفريقية ويصفونه بـ «لقيط».

فيرد عليهم: «أنا يتيم»، ولكن الأطفال لا يفهمون ولا يدركون حجم الأذى الذي يتسببون فيه.

كان أبو ياسين يرسله مع ولده ياسين إلى الكُتَّاب - وهي مجموعة لتعليم ما قبل الابتدائية -، عانى حمزة كثيراً من عنصرية التلاميذ الذين يكيلون له السباب ويؤذونه ويصقون عليه وأحياناً يقذفونه بالحجارة.

اشتكى حمزة لعمه أنه لا يريد أن يتعلم وسيكتفي بخدمته، كان ذلك اليوم أول يوم يذهب فيه ياسين إلى الكتاب ولا يرافقه حمزة، ولم يعودا كالأخوين، تحدد لحمزة أن يكون مصيره لقب «صبي» أبو ياسين.

لم ييدر من ياسين أي كلمة أو موقف يجرحه، لقد كان موقفه حيادياً فلم ير منه شراً كما لم ير منه خيراً، بينما كانت طيبة أبو ياسين تغمره وكانت السبب في أن يتحمل الحياة ويستمر.

يتذكر حمزة وهو يرسم بالحفر على جدران غرفته الطينية ذلك اليوم الذي بلغ فيه 14 سنة، يتذكر ذلك الموقف بوضوح، ويستعيده بسخرية عندما جلب بعض الأغراض لأم ياسين ورأى ياسمين، فصرخت عليها الأم: «ادخلي جوه».

ثم نظرت لحمزة وقالت له مؤنبة: «وإنت كمان شنباتك بتطلع صرت رجال خلاص لا تدخل فوق دق الباب ومن بعد اليوم أنا اللي راح أخذ منك المقاضي»⁽¹⁾.

هذه تربية أهل جدة، الأدب واحترام العادات الإسلامية، أهل الشرف والعفة.

رسوماته محفورة على الجدار، بدأ هذه الهواية منذ انتقاله لغرفته المطلية بالطين والتي عاش فيها سنوات، برغم أن أبا ياسين عرض عليه أن يطلّيها بأي لون يختاره إلا أنه أثر لون الطين البني. كان يحب «التكاليل» وهي الأخشاب الأفقية التي تعطي دعامة لبناء بيوت أهل جدة القديمة. حتى سقفه من الطين البني، وفي المنتصف لمبة يتيمة. يتيمة مثله. شاخت مع الأيام، وصار ضوءها باهتاً وخف وهجها. كان حمزة يبحث في نورها عن حمزة. يغوص لأعماق نورها هنا وهناك ويعود بخيبة. فلا هو وجد بها نفسه ولا هو أبصر بها الحقيقة.

كان حمزة يتأمل فيها كثيراً وكان يطفئها إذا علم أن أبا ياسين على وشك دخول المنزل مع أنه لم يكن يعنفه لاستخدامه الكهرباء.

(1) المقاضي: ترمز إلى المؤونة المشتراة من البقالة.

يذكر هذه اللبة الصفراء جيداً كم فرح بها حمزة عندما وضعها أبو ياسين في غرفته، بعدما كان يستخدم الأتاريك⁽¹⁾ للإضاءة شأنه شأن أي بيت في تلك الفترة.

كانت اللبة بالنسبة له كل الألعاب التي لم يحظَ بها في طفولته، لا يتذكر حمزة طفولته، فمنذ نعومة أظفاره وهو رجل يتحمل المسؤولية. يحب الحفر على الجدران، وصنع النبيلات⁽²⁾.

بأسلاك علاقات الملابس المعدنية، إنه بارع في تطويعها للشكل الذي يريد، في الوقت الذي كان فيه الأطفال يرسمون بالألوان وبالفتح على جدران البيوت، كان هو يحفر بالسلك المعدني، يحفر ويحفر. لم تكن رسوماته جميلة، بل مبعثرة طفولية وليس لها أي معنى لمن يراها.

لا يعرف من حياته سوى الروتين، يصحو كل يوم ليساعد عمه أبا ياسين على الوضوء ويذهب معه للمسجد ثم يلحقهم ياسين متائباً، بينما يصلي حمزة مع عمه ويسبقه بثوانٍ حتى يجهز خُفَّهُ ليلبسه في قدمه، ليمسح أبو ياسين على رأسه: «بارك الله فيك ولدي حمزة».

بعد الصلاة يفتح الدكان فيعمل فيه حتى بعد صلاة العشاء ثم يعود إلى غرفته منهك القوى. وينغمس في عمله كي ينسى أو لا يواجه أسئلة كثيرة تطارده وتشتت ذهنه أينما ذهب.

(1) الأتاريك: مفردا إتريك وهي القناديل الزجاجية التراثية تشتعل بأعواد الثقاب والكبروسين.

(2) النبيلات: مفردا نُبيلة بضم النون آلة لرمي الحجر الصغير تصنع من الأسلاك المعدنية والمطاط.

كانت الأسئلة شياطين تجري وراءه وتلاحقه. تسيطر عليه عندما يهدأ؛ لذلك كان يحب أن يتحرك كثيراً ليبعدهم. لا يحتاجون إلى الليل ليظهروا، يمكنه أن يراهم كشموس راقصة في وسط النهار. هنالك شيطان يسمى: «مين أمي ومين أبوي؟».

وهنالك شيطان يسمى: «أنا ليش أشتغل عند أبو ياسين؟».

وشيطان آخر يقول له: «إنت سعودي ولا لأ؟».

أثناء إتمام صفقة كان برفقة عمه، وقتها طلبوا شاهدين، كان أحدهما حاضراً، وعندما عرض حمزة خدمته قال له التاجر: «إنت يا ولد منت سعودي».

وقتها عرف أن هنالك في الدنيا شيئاً اسمه سعودي وليس سعودي، وقتها عرف ولمح دفتر التابعة⁽¹⁾ الذي في جيب أبو ياسين، إنه لا يملك واحداً ولا حتى دفتر «إقامة» مثل الآخرين.

وكان أكبر الشياطين عمراً هو الذي يوسوس في أذنه ليكره أبا ياسين بقوله: «هو يعرف إنت مين ليش ما قالك للآن؟».



قبل اختفائه بفترة كان يسأل الكثير من الشباب عن أعمارهم ويبدأ في مقارنة نفسه بهم.. إن الهالة الغامضة التي كانت تحيطه وَلَدَت لديه عقلية وسلوكاً وتصرفاتٍ مختلفة عن الشباب الطبيعيين.

(1) دفتر التابعة: كانت تطلق على كرت العائلة أو بطاقة الهوية السعودية.

تحولت رسوماته في الفترة الأخيرة إلى مجموعة من الأدخنة لا معالم لها كشياطين أسئلته، كأن حياته انتكست. لكنه لا يستطيع أن يتمرد وليس من حقه أن يصرخ أو يرفض واقعه عندما تقول إحدى السيدات في الحارة لصاحبتها: «هذا كيس ثقيل خلي هذاك الولد الأسمر يساعدنا».

وعندما سمع كلمة أسمر كاد ينفجر غضباً وسارع إلى غرفته. تلك الغرفة المظلمة والتي تذكره بظلمته هو، لذلك كان يحب اللمبة الصفراء المعلقة، إنه يكره كلمات العنصرية من أفواه الناس. يومها كان يفرغ غضبه في الجدران، يحفر ويحفر. ليشغل انتباهه مرور صرصار، قام من مكانه وأراد أن يقتله إلا أن الصرصار خرج سريعاً من غرفته فلاحقه حتى دخل في فتحة صغيرة في غرفة الكراكيب⁽¹⁾. لأول مرة سأل نفسه: لماذا لا يتخلص أهل البيت من هذه الأشياء التي تراكم عليها غبار السنين؟!

سنوات كثيرة مرت على هذه الغرفة المهملة. صناديق متهالكة، وكتب ممزقة، وستائر قديمة مطبقة، وكراسي من العهد العثماني، طاوولات خشبية وكرويتة قديمة⁽²⁾. لكن كل همه كان متابعة الصرصار الذي خرج من تلك الفتحة وهرب إلى فحل الدرج⁽³⁾.

(1) الكراكيب: هي كل ما يستغني عنه أهل البيت من أثاث أو أجهزة وغيرها.

(2) الكرويتة: هي جلسة الباطمة تصنع من الخشب وتكون مرتفعة.

(3) فحل الدرج: عبارة عن القاعدة الهامة التي تتحمل البناء وهو جدار عريض متين تدار من حوله السلالم وينتهي بفسحة تؤدي إلى مدخل المجلس والغرف الملحقة به. وكان أهل جدة عادة في تلك الفترة يبنون فحل الدرج من جدارين بينهما فجوة كبيرة توضع فيها الأحجار المخلوطة بالطين لتقويتها ولكي تربط جميع الأجزاء.

ذهب حمزة يومها إلى البقالة واشترى مييداً للحشرات، ثم عاد في المساء وقد دب فيه الحماس وامتألت رأسه بالأفكار لكنه وجد جدار فحل الدرج مظلماً جداً فقال في نفسه: «الصباح رباح».

تسلى بالحفر تارة وبأكل الطعام الرديء تارة وتدثر بالكتمان جيداً ثم غطّ في نوم عميق.

اندس الصرصار في الفتحة الصغيرة في جدار فحل الدرج المطلي بالنورة⁽¹⁾. فترك أمر اللحاق به إلى اليوم التالي.



مع أضواء الفجر الأولى وقبل الذهاب للدكان مع أبي ياسين ذهب عبر غرفة الكراكيب وقد غلبه حب الاستطلاع، حاول أن يُصدر ضجة لعلّ الصرصار يخرج، ولكنه عبثاً حاول فبدأ برش المبيد. بعدها خرج من تلك الفتحة 3 صراصير تهرب فجري خلفها ودهس عليها بخُفّه وهو سعيد، فما فعله بحد ذاته مغامرة فرح بها كفرحة الطفل بلعبة جديدة وإنجاز يحققه لأول مرة.

مر يومه عادياً وأخبر أبو ياسين بقوله: «عمي اليوم قتلت ثلاثة صراصير عند فحل الدرج».

إلا أن أبا ياسين لديه من الأمور الأهم والتي تشغل باله أكثر من الصراصير التي قتلها حمزة فلم يعبأ لقوله، فعاد أدراجه

(1) النورة: مادة طلاء كانت تستخدم في الماضي، فيتم تكسير الأحجار حتى تتحول إلى بودرة أقرب للبياض وكان العمال الذين يقومون بطلاء الجدران من الداخل والخارج يسمون النوارين.

خائباً. إنه أشبه بمن يضحك في مأثم. ويبكي في فرح. وحيد بدون أنيس أو رفيق.

في صباح اليوم التالي قرر حمزة أن يذهب في جولة صيد أخرى، لا يعرف ماذا يصيد هذه المرة: وزغة⁽¹⁾ مثلاً، أم خنفساء.

وذهب للجدار مرة أخرى وصار يحرك بعض الكراكيب هنا وهناك ولكنه لم يجد أي شيء، فبدأ يجرب الرش تحت الأثاث القديم بدون أمل.

تساقطت عليه أتربة كثيرة حتى عطس عدة مرات. وعندما يؤس قام وهز المبيد وقال في نفسه: «بقي القليل منوفين يا ترى أبخه».

ثم فكر في فتحة الصرصار بالأمس وقال: «يمكن رجعوا اللي كانوا بره». فذهب للفتحة وصار يرش حتى انتهى المبيد ولم يخرج من تلك الفتحة أي شيء.

ثم ذهب سريعاً واغتسل وكان يريد أن يخبر عمه عن المبيد الحشري، إلا أن أبا ياسين نزل وصاح بصوت عالٍ: «ريحة ايش هذي؟ ايش باخة في الدرج يا أم ياسين؟»

وسمع أم ياسين تقول: «ما بخيت شي يا أبو ياسين».

فخاف حمزة أن يخبر أبا ياسين فسكت، ولكنه كان سعيداً، وربما قرر في نفسه أن يلعب هذ اللعبة كل يوم.

(1) الوزغ: هو أبو بريص من الحيوانات الزاحفة وتكثر في الحر.

في اليوم التالي، كان يحفر كعاداته بسلك معدني، فخطرت له فكرة جديدة في صيد الصراصير. دخل غرفة الكراكيب، وذهب نحو فتحة الصرصار، وأدخل السلك المعدني، كان يعتقد أن هنالك صرصاراً كبيراً لا يود الخروج، وصار يحرك بالسلك المعدني وتعجب أن السلك دخل لمسافة كبيرة ثم اصطدم بشيء ما. حاول أن يحرك ويحرك. فجأة نزل أبو ياسين ينادي: «يا حمزة تأخرنا على الدكان ياللا بينا ياللا ياسين ألحقنا».

توقف حمزة عما يفعل وذهب إلى الدكان وقضى يومه كالمعتاد، ثم عاد فوجد الغرفة مظلمة، وكعاداته مع طلوع الفجر سيحاول مرة أخرى.

لقد ساعده على تحريك الشيء الذي لا يصدر صوتاً مهارته في تحريك السلك بالزوايا المعينة، وتوصله لحل أن يعمل رأساً للسلك يسحب به هذا الشيء. كان يسحب ويشعر أنه سحب الشيء الغامض ولكن قبل الفتحة يفلت من رأس السلك المعدني، فيبدأ من جديد وهو يرسم في مخيلته خيالات عديدة لهذا الشيء.

هل هو منديل؟ ورقة؟ الصرصار الكبير الخيالي في باله؟ فسحب وسحب وسحب حتى استسلم الشيء العجيب وظهر بعض منه.

نظر إليه حمزة وضحك ولسان حاله يقول: «كل هذا عشان إسفنجة قديمة؟!».

ابتسم حمزة فبدت أسنانه البيضاء لامعة تحت أشعة الشمس التي تسالت من بين الكراكيب. وسحب الإسفنجة كلها وهي إسفنجة قديمة جداً صفراء تدخل في صناعة المساند، نظر لها بحسرة وخيبة. ثم ضحك ورماها فوق مجموعة المساند القديمة التي يعلوها التراب وذهب إلى العمل.

كان مستاءً طوال ذلك اليوم، ليته لم يلتقط الإسفنجة على الأقل كان هنالك شيء يشغل تفكيره كلغز، لقد كان التنقيب في الفتحة وصيد الصراصير خير ما ينسيه شياطين الأسئلة.

عاد في الليل ونظر لغرفة الكراكيب وللإسفنجة التي فوق المساند، لقد كرهها وقال في نفسه: «يا ليتك ما طلعت».

ثم عاد لغرفته وتأمل اللبة الصفراء مرة أخرى، يحاول أن ينام ولكن جافاه النوم تلك الليلة، عادت شياطين الأسئلة تحوم حول رأسه وتخرق قلبه، ضاحكين ساخرين منه، حمزة يعرفهم. يعرف متى يزورونه؟ ويعرف أنه حتى لو أغمض عينيه فسيظهرون أمامه طارحين الأسئلة «مين أمي؟ ومين أبوي؟» و«أنا ليش أشتغل عند أبو ياسين؟» و«إنت سعودي ولا لأ؟».

ولكن مهلاً هنالك شيطان آخر جديد: «ليش في إسفنجة في الجدار؟».

جحظت عيون حمزة وخفق قلبه. وفجأة.. سمع أذان الفجر.

ذهب حمزة مع أبي ياسين للمسجد، ثم عاد ليتناول طعام

الإفطار ويستعد للذهاب للدكان. فتح باب غرفة الكراكيب، وجاء بالسلك المعدني، وأدخله مرة أخرى وحرك فلم يشعر بشيء. أغمض عينيه جيداً وحاول بحرفيته أن يحرك السلك حتى سمع صوتاً. لا يعرف ما هو الصوت ولكنه حتماً ليس إسفنجة هذه المرة، بل هو شيء أفسى، أخذ يحرك السلك، لقد كان يشعر به ويريد إمساكه.

ولكنه يأبى أن يخرج مثل الإسفنجة، فسحب السلك بعصبية وصار يشكل رؤوساً مختلفة، فتارة يشكلها حلقة. وتارة يشكلها كراس السهم، حتى استطاع أن يغير مكانه، كانت حبيبات العرق تتساقط من أخاديد رقبته المتصلبة. ثم تذوب مع تراب أرضية الغرفة أمام الفتحة المجهولة. وبثقة جراح ماهر. سحب بهدوء شديد. حتى وجد بين يديه ورقة كادت أن تتمزق وتلتف.

فتح الورقة وهو لا يعرف الكتابة أو القراءة. لكنه عرف أنها أرقام وحروف. على الأقل فهو يفرق بين الأرقام والحروف.

طبّق الورقة ووضعها في جيبه وقضى يومه بشكل غير عادي، حتى انتبه له عمه أبو ياسين: «سرحان في إيش يا ولدي حمزة؟»

كان حمزة شاردأً ولا يريد أن يحدث عمه عن الورقة، ولكنه سأل عمه سؤالاً: «عمي. إنت تؤمن بالسحر؟»



هل من المعقول أن أحداً ما كان ينوي سحر هذه العائلة؟!

سأل نفسه: ما هي أكبر مصيبة رآها أهل ياسين؟

أبو ياسين في نظره الرحمة مجسدة. إنه رمز الإنسانية والتدين.

ثم ما هذه الورقة التي قلبت حاله رأساً على عقب، وكأن عقارب الزمن توقفت من أجلها؟!

كيف لورقة أن تزلزله بهذا القدر؟ وتجعله نهباً للشكوك وتفتح له عالماً مريباً بهذا الاتساع؟

ونظرة منه عليها كأنها رحلة على بساط الريح إلى ما لا نهاية!

ما هذه الحروف والكلمات الصماء. إنها لا تكف عن الركلات والصرخات. تصرعه في مكانه، لا يستطيع أن ينظمها في سياق يمكن تمييزه أو فهمه.

إن أكبر مصيبة في نظر حمزة هو أن أم ياسين تبكي كثيراً لأنها لم تنجب سوى ياسين وياسمين.

هل من المعقول أن أحداً سحر أم ياسين كي لا تنجب؟

فكر كثيراً في كل أعداء أبي ياسين وتذكر أنه قبل عدة سنوات استقبلوا حجاجاً في بيتهم وكان يعرف أنه وبرغم كرم أبو ياسين معهم إلا أنهم يضمرون الشر له.

وتذكر أيضاً جيراناً لهم طلبوا يد ياسمين ورفض أبو ياسين فكان العريس غاضباً من العائلة وصار لا يسلم على ياسين.

أو ربما هو ذلك الشخص الذي غش أبا ياسين قبل عدة سنوات وباعه تنكات زيتون فاسد وكشف أبو ياسين غشه ولم يعاقبه، ومع ذلك ظل يسيء في سمعة أبي ياسين.

أم هي تلك السيدة التي تحاول معرفة سر مخلات أبي ياسين وطلبتة مرة ولم يعطها أبو ياسين.

أو.. أصدقائه الأفرقة الذين يحسدونه على عمه الطيب؟! فكثيراً ما دخل في عراك معهم لأنهم يؤذونه ويغارون منه. ربما سحره ووضعوا له السحر في الجدار. وهذا يفسر رؤيته للشياطين التي توسوس في أذنه كل مرة.

توقفت كل الهواجس والتساؤلات عندما تذكر أن ورقة الأرقام في جيبه، هل سيخبر أبا ياسين؟؟؟

هل سيسلمه الورقة وليحدث ما يحدث؟

لا.. لا.. إنها مسألة شخصية بينه وبين الشياطين التي ترعد عقله دويّاً لسنين عدة.

رد عليه أبو ياسين بحزم: «ليش تسأل يا حمزة؟ أيوة طبعاً أو من بالسحريا حمزة، مذكور في القرآن».

لكن حمزة غير الموضوع بقوله: «عمي بكرة يوصلنا مع عيش الشريك حبك المدينة وعجوة المدينة كثيرين مستنينها».

فرد عليه قائلاً: «الرزق على الله يا حمزة. يارب ارزقنا الرزق الحلال».

وجاءت زبونة فقام الاثنان لخدمتها.

في طريق العودة مرَّ على صديق له يعمل صبيّاً عند عم عثمان العطار في سوق الندى، وأخذ منه مطرقة وفأساً صغيرة، وعاد للمنزل ليكمل البحث في الفتحة وقرر أن لا يفعل شيئاً حتى يخلو البيت لكي لا يتنبه أحد للجلبة التي ستحدث.

لو استطاع أن يكسر جدار الفتحة ويبطل السحر سيواجه الشياطين التي تؤذيه، وسوف يتخلص منهم، إنها مسألة تحدّ.

مرت عدة أيام ولم تأتِ فرصة، لقد كان ذلك الجدار البني يقف سدّاً منيعاً بينه وبين ما يعتقد أنه طلاس. إلى أن جاء اليوم وذهبت أم ياسين مع ابنتها لزيارة جارتهم أم محسن، ولم يكن ياسين في

البيت، أخذ الفأس الصغيرة وضرب أول ضربة، لم يحدث شيء سوى أن الجدار نفّض عنه غباراً ثقيلاً غطى ملابسه، فعطس عدة مرات، ثم مسح أنفه وضرب مرة أخرى، لم يكن الأمر سهلاً.

توقف برهة واستجمع قواه وضرب، كان الصوت عالياً، لذلك بدأ يترك فترات زمنية بين كل ضربة حتى انشق الجدار. لكنه لم يتحطم. واستمر حتى سمع خطوات أم ياسين، فقام بسرعة وذهب لغرفته.

نادته أم ياسين: «حمزة خذ هذا الزنبيل⁽¹⁾ وأعطيه لأم محسن».

كالعادة. أوامر لا تنتهي. وحياة الشقاء مستمرة. كيف لأصدقائه أن يسحروه أو يحسدوه؟!

(1) الزنبيل: كيس يُستعمل لحمل الأغراض.

فحياته خالية من أي معنى، إنه واحد من مئات الناس يحملون نفس لون بشرته، وهم مثله لا يحملون بطاقة تعريف أو جنسية.

استمر في الحفر كلما خلا البيت، حتى كبرت الفتحة واستطاع أن يدخل يده ونصف ذراعه، فأدخلها بقلب هلع وقال وهو يقاوم الرجس والشر: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أعوذ برب الفلق من شر ما خلق».

وأخرج يده فسقط على الأرض جنيه لامع رغم الغبار الذي يحيط به. جنيه من ذهب.

4

كان أبو عمران تاجر قماش في شارع قابل في جدة، يمشي بين حوارى مكة ويحاول أن يتذكر آخر وصف لبیت سأل عنه، حتى ضل الطريق وآمن بقولهم: «إن أهل مكة أدرى بشعابها».

يحمل معه كيساً ورقياً فيه بعض الأطعمة والمؤونة، فأوقف أحد صبيان حوارى مكة وسأله عن بيت منصور، فأشار له الطفل ثم مضى في طريقه.

دق أبو عمران عدة أبواب خطأ وكانت ترتسم على وجوه الناس الذين يسألهم علامات امتعاض واشمئزاز، حتى وصل لباب بيت خشبي قديم جداً، وطرق الباب فرد عليه شخص ما قائلاً: «مين؟»

وبعد فتح الباب سأل أبو عمران «هذا بيت الأخ منصور؟»

أنا أبو عمران. أخو يزيد، جيت أسأل عن أخوي. سمعت انو يعيش معاك».

انفرت أسارى ساكن البيت. فلقد ظن أنه دبوس⁽¹⁾ أو من الشرطة.
نفث منصور الدخان ورماها ودهسها بزوبته⁽²⁾ وقال ساخراً:
«تقول أخوه.؟»

غضب أبو عمران بسبب سوء استقباله: «صار لي سنين أدور
عليه، ومو راضي يقابلني، وسمعت قبل كم شهر إنو سوى حادث
سيارة».

رد برائحة نفس مليئة بالدخان: «أيوة. سيارة صدمته».
سمعا صوتاً من الداخل.. صوت ضعيف: «مين؟»

حن أبو عمران لصوت أخيه ورق قلبه. وأراد أن يدخل ولكن
صاحب البيت رمقه بنظرة قائلاً: «على العموم أنا مالي شغل إنت
وأخوك تصطفلوا».

كانت رائحة السجائر والطعام العفن والجوارب غير النظيفة
تفوح من البيت القديم، وهاله منظر أخيه طريح الفراش ويده
ورجله مجبرة بالجبس.

كتم أبو عمران أحزانه فمنظر أخيه طريح الفراش ذكره بوالده
رحمه الله، ولكن الفرق أن يزيد شاب قوي مفتول العضلات وإن
كان به كسران لكنه ضخم يستطيع أن يرفع شاحنة إن أراد.

قال أبو عمران بعيون حزينة: «كيف حالك أخوي يزيد؟»

(1) دبوس: في هذا السياق تعني جاسوس.

(2) الزنوبة: هي نوع من الصنادل الصيفية الخفيفة ذات القدم المكشوفة.

أشاح يزيد بوجهه: «إيش جابك. جاي تعطيني دكانك ولا بيتك؟ إذا مو عشان كده اطلع ما أبغى أشوف حلقة وجهك».

تعمد أبو عمران أن يتجاهل رد أخيه القاسي عليه وجلس بجواره: «اللهم رب الناس أذهب البأس. اشفي أنت الشافي».

قاطعہ يزيد بوقاحة متمعدة: «يا خي ما أبغى دعاء. أبغى حقي».

رد عليه أبو عمران محاولاً أن يقنع نفسه بهذه الأخوة والقدر المكتوب: «ألف سلامة عليكم يا أخوي. مهما كان تبقى أخوي اللي أصغر مني ومن لحمي ودمي. خذ هذا جبتة عشانك وإذا تبغى».

عندها عدل يزيد وضعه ورمى بكيس الورق البني فتدحرج منه برتقال وتفاح: «قتلتك ما أبغى منك غير حقي تعطيني ورثة أبوي».

تنحرج أبو عمران حتى جلا صوته وتجرد من الأمل: «لا حول ولا قوة إلا بالله. يا أخوي نحنا وزعنا فلوس أبوي الله يرحمه. و».

رد يزيد بحدة: «وانت أكلت علي حقي. أبغى دكانك اللي في قابل. كله بأقمشته».

أدخل عمران يده في جيبه وأخرج مبلغاً من الريالات ملفوفاً بمنديل ومدها لأخيه: «يمكن تعتاها عشان العلاج».

كان رد يزيد سريعاً وجاهزاً: «تضحك علي بشويتين هذي.

قتلتك أبغى دكانك».

عندها أدرك أبو عمران أن أخاه الذي ملأ الطمع والجشع قلبه

لن تشبع نفسه أبداً. وسيظل هكذا وربما لم يستحق كل العناء الذي بذله من أجل البحث عنه والسؤال عن أحواله. فهم بالخروج.

شد يزيد نفساً عميقاً وصرخ بكل وقاحة: «والله راح أجي آخذ منك دكانك غصباً عنك. رضيت ولا ما رضيت».

لم ينبس أبو عمران بكلمة وخرج من المنزل العفن حزيناً. حتى وصل إلى المسجد الحرام، فدخل وصلى ركعتين وجلس يسبح أمام الكعبة ويتذكر الماضي الحميم بكل أصالته وعيوبه.

سيل جارف من الذكريات وأعوام كثيرة مضت على أبيه عمران الذي كان طريح الفراش في بيتهم القابع على طرف حارة اليمن.

وكان أخوه يزيد ذو الاثني عشر ربيعاً لا يزال يدرس في الابتدائية لأنه رسب عدة مرات، أما حال أخيه الكبير أبو عمران حال أي أخ كبير يضحي بشبابه من أجل مستقبل أخيه خاصة إذا مرض الأب، عندما نصح أصدقاء العم عمران بأن يسجل أملاكه كي لا تضيع، فطلب من أصدقائه الحضور وأحضر له أحدهم صكوك ملكياته وبصم عليها العم عمران باستخدام حبر شيني⁽¹⁾ ثم وضعوا الأوراق في صندوق تحت سريره الخشبي الذي ينام عليه. كان الأخوان ينظران إلى أبيهما من بين جموع الناس الذين كانوا يطمنون العم عمران أن الدنيا بخير طالما لديه ابن بار مثل أبو عمران والذي كان في الثامنة عشرة من عمره وقد واصل العمل في مهنة بيع الأقمشة في دكان أبيه في سوق الندي، ويكد من أجل لقمة العيش له ولوالده المريض ولأخيه يزيد.

(1) الحبر الشيني: حبر يصنع في الصين يستخدم في تعبئة الأقلام.

انصرف الناس بشعور مضطرب متداخل، ولم يعرفوا أن الله أراد بذلك حكمة، فقد اجتمعوا جميعاً بعدها بأسبوع عندما عاد أبو عمران ووجد جسد أبيه بارداً. وقتها بكى أبو عمران وصرخ بأعلى صوته ينادي الناس: «أبوي. أبوي.. ياناس. تعالوا. أبوي».

هب كل صاحب بيت يخرج من حارة اليمن وتجمعوا حول بيت العم عمران الذي فارق الحياة. لم يبك يزيد. برغم أنه حضر الغسل وشاهد القبر جي⁽¹⁾ الذي حمل والده ودفنه.

وعاد الناس لتبدأ مراسم العزاء. وأحضروا المبات صفراء وعلى خط واحد طويل في حارة اليمن استقبلوا العزاء في الحارة. كان أبو عمران يبكي، أما يزيد فلا. والكل قالوا لأنه صغير لا يعرف أن يفرق بين أحزانه وصدماته.

انقطع العزاء بعد ثلاثة أيام. وحضر ثلاثة أشخاص من جلة أصدقاء العم عمران. ودخلوا مع أبي عمران ويزيد غرفة أبيهم وفتحوا الصندوق. وفيما هم يبحثون في الأوراق ويرتبونها.

قالوا بأريحية: «التركة واضحة التقسيم اثنين بنين. تتوزع بينكم الورثة بالنصف».

أكمل الآخر: «على حسب علمنا العم عمران معه ثلاث بيوت اثنين في مكة وهذا البيت في حارة اليمن. ومعه كمان دكانين قماش في مكة ودكان قماش في سوق الندي».

وقتها وقبل أن يكملوا قال أبو عمران بصوت حزين: «أعطوني

(1) القبر جي: نسبة إلى القبر وهو الشخص المسؤول عن تجهيز وغسل الميت ودفنه.

الثلاث بس. أخوي يزيد يتيم عمره اثنا عشرة سنة، أعطوه بيتين وأنا بيت وأعطوني دكان وأعطوه هو دكانين. بس الله يخليكم أبغى بيت أبوي هذا».

ذهل الناس وسألوا أبي عمران مراراً عن هذا القرار فأكد لهم قراره. سألوا يزيد أي البيوت يريد، فرد.
«أنا أبغى أعيش في مكة».

فرد الناس: «يعني متفقين. خلاص البيت في مكة والدكان اللي في مكة ليزيد».

وقال الآخر: «وهذا البيت مع دكان سوق الندي لأبي عمران».
أضاف ثالثهم: «بس والله حرام. البيت اللي في مكة كبار مرة وسعر الواحدة فيهم عن اثنين من هذي. فكريا ولدي أبو عمران.
متأكد. القسمة صارت كأنها ربع لك وثلاث أرباع لأخوك».
فرد بحزن: «ما يهمني. أنا أبغى البيت هذا عشان فيه ريحة أبوي».

فسألوا يزيد ورد بالموافقة.

كتب أحدهم إثباتاً لتوزيع التركة، وفتحوا الأورق ووجدوا كل صكوك الملكية التي بصم عليها العم عمران قبل موته وصاروا يترحمون عليه وأبو عمران لا يستطيع كبت بكائه. قال أحدهم: «كل الصكوك موجودة بس صك هذا البيت في حارة اليمن موجود».

فبحث الجميع وقال أحدهم: «يا جماعة شكلنا نسينا نبصم العم عمران على صك ملكية هذا البيت».

رد أحدهم: «لا متذكر كتبناها وبصم عليها. فيها؟»

أما أبو عمران ويزيد فكانا يجلسان بجانب بعضهما البعض أحدهما يكتّم بكاءه وصرخات أعماقه والآخر بدون أية مشاعر وعين متمردة ملبدة بكساد المشاعر. فقال أحدهم:

«طيب في هذا الحالة نكتب ورقة ونشهد تشين منا على إن هذا البيت سيكون لأبي عمران. والبيتين في مكة وهذي صكوكهم ملكيتها ليزيد».

تم الاتفاق ووقع عليه صديقا والديهما رحمه الله. وكتبوا في الاتفاقية أن دكان قماش سوق الندى وكانت بالإيجار بكل أقمشتها تعود الآن إلى أبي عمران، أما الدكانان واحد منها كان يملكها العم عمران في مكة مع الأقمشة ستعود ملكيتها ليزيد.

وتحدثوا عمن سيدير المحلات في مكة فأشار أحدهم إلى أن هنالك شخصاً يعمل لدى أبيهم رحمه الله هو الذي يدير أعمال البيع في الدكانين، ومن الأفضل الآن ليزيد أن ينتقل إلى مكة ويعمل صبيّاً عنده مؤقتاً حتى يتعلم أصول المهنة حتى يستطيع الإشراف على دكاكينه عندما يكبر.

فوافقه الآخرون: «فعلاً هو رجل كفؤ ولا يأكل مال اليتيم».

انتهت الصفقة واستلم يزيد الصكوك. قال أحد الحضور: «أنا نازل مكة اليوم وأنا راح أوصلك. لملم يا يزيد ملابسك».

جمع يزيد ملابسه سريعاً وهم بالخروج، لكن أبا عمران أوقفه قائلاً: «يزيد تترك أخوك. خليك معاي في جدة. أنا أركاك. ما عندي أخو ثاني غيرك».

إلا أنه رد عليه قائلاً: «أبغى أعيش في مكة عند أملاكي» وخرج.

لم تكن الصفقة عادلة لكنه لم يشتك أبداً، فأبو عمران الذي كان باراً بأبيه لم يكن يهتم في الدنيا أموالاً أو مصالحاً، كان يكتفي بالرزق القليل الحلال، واستطاع أن يربح من دكان قماش أبيه وأكمل الإيجار، وعندما سمع عن شارع قابل وأنه تم تسقيفه وأدخلت فيه المراوح واللمبات، استأجر دكاناً هناك ونقل أقمشته، وأصبح عنده ما يكفيه.

رغم مرور السنين على البيت الصغير إلا أنه يحبه كثيراً؛ ففيه رباه أبوه، وفيه مات أبوه. وفيه تزوج أبو عمران وأنجب الأولاد والبنات. أكبرهم على اسم أبيه عمران. السعادة سعادة ولو بالقليل من المال. السعادة بالقناعة.

عودة إلى تسبيحات أبي عمران أمام الكعبة حيث تنهد وظهر عليه الحزن مع الذكريات ورفع كفيه بالدعاء: «يا رب لك الحمد».

صلى الجميع صلاة المغرب ثم خرج فوجد الكثير من سيارات الأجرة القديمة ينادون: «جدة. جدة. جدة».

دخل في إحداها مع أناس آخرين تراحموا وقال السائق: «بسم الله على بركة الله». وانطلقت السيارة إلى جدة.

في اليوم التالي ساعد منصور صديقه يزيد في الذهاب للمستشفى، فالיום هو موعد كسر الجبس، كانت الممرضة تكسر الجبس بهدوء مع الدكتور ويزيد لا يستطيع منع نفسه من شعور القهر والغضب من زيارة أخيه أبي عمران.

لطالما كان أبوه يخاصمه: «يا ليتك زي أخوك الكبير».

كبر يزيد وهو يكره أخاه، لم يفلح في المدرسة وكان كثير الهرب منها، في يوم كان أبوه يضربه وجاء أبو عمران وشاهده وهو يضربه ولم يفعل شيئاً له.

فقال له بغضب: «ليش ما دافعت عني. انت اشتكيت أبوي؟»

رد عليه أبو عمران: «أنا باشتغل واكرف⁽¹⁾ عشان ترتاح وتدرس وتشتغل على مستقبلك. مو عشان تهرب من المدرسة. إيوة أنا اشتكيت أبوي».

كان يزيد يستطيع أن يميز نظرات التفرقة في عيني والده. فعندما ينظر لأخيه الكبير كانت نظرات والده مليئة بالفخر والاعتزاز.

وعندما ينتقل إليه كان يشعر بالغضب. لم يعد يشاركهم مائدة الطعام، وصار مشاكساً أكثر. وتمرد حتى ضُفَّ أبوه ووهن وأصيب بالمرض. وقتها انكسرت شوكة أبو عمران الذي كان يحب أباه كثيراً وزادت حدة طباع يزيد الذي يهابه الجميع، يزيد الذي كان يمتلك قوة وفتوة غير معقولة.

(1) الكرف: هو شدة التعب والإجهاد بسبب العمل المضني المتواصل.

كان أبو عمران يعمل ليل نهار، فانحنى ظهره مبكراً لأنه شعر بالمسؤولية، كان يتكبد عناء العمل في الصباح وعناء الاهتمام بأبيه في الليل. ذات يوم اشترى يزيد جهاز «صوت سيدة»⁽¹⁾ لسماع الأغاني وكان هذا يضايق الأب المريض، طلب منه أبو عمران عدة مرات أن يخفض الصوت لأن أباه أهلكه المرض وليس من اللائق أن يستمع للأغاني بينما أبوه يعاني الألم والأوجاع. وفي يوم عاد للمنزل ولم يجد جهاز الأغاني، فبحث عنه كثيراً لكنه لم يجده، فسأل أخاه أبا عمران فادعى أنه لا يعرف وربما سُرِق، بحث عنه طويلاً حتى بكى على فقده، وبعد أسبوع وجد أطفال الحارة يلعبون بذلك الجهاز المحطم فمنهم من أراد أن يحول مكبر الصوت إلى ميكرفون والآخر يلعب بأسطوانة الأشرطة ويدحرجها. فصرخ عليهم: «من فين لقيتوها يا حرامية».

أشاروا لساحة خلف المنزل تلقى فيها الأشياء المهملة. يومها حقد يزيد على أخيه أبي عمران. وعندما عاد هجم عليه فصرخ أبوه وهو مريض وصار يدعو على يزيد: «يا رب لا يوفقك.. غضب الله عليك».

توقف أبو عمران لأنه خاف على أخيه من دعاء أبيه. أما يزيد فشقَّ ملابسه وضرب على وجهه. ثم خرج من البيت وهو يتوعد ويطلق اللعنات. فكر كثيراً أن يهرب من البيت، لكن إلى أين سيذهب؟ يعود في الليل فيسمع أباه على الفراش: «تتأخر في الليل كمان. الله لا يرضى عليك».

(1) صوت سيدة: وهو الفونوغراف أو الصندوق الذي يغني.

تعود يزيد أن يستمع إلى دعوات الغضب ونقمة والده عليه حتى صارت لا تؤثر فيه. وفي الوقت الذي كان يدعو فيه على يزيد كان يدعو بالخير لأبي عمران الذي يحمله ويذهب به إلى «بيت الماء».

كان أبو عمران يعود من العمل ويجلب الطعام والشراب لأبيه ويطعمه وكأنه طفل صغير. يمسح على وجهه ويغير ملابسه.

فكان يسمع: «الله يرضى عليك يا ولدي. الله يرزقك. الله يعطيك. أنا أستناك في باب الجنة ما أدخله إلا معاك يا ولدي».

«يا أبوي لا تقول كدة الله يطول في عمرك من بقلنا في الدنيا غيرك».

كل هذه الدعوات التي سمعها يزيد لم تمر مرور الكرام على قلبه. فكان السطح هو ملاذه. يلعب وحده، ويأكل وحده وينام وحده. كان وجهه دائماً مليئاً بلدغات الناموس. وكثيراً ما حاول أبو عمران أن يضع له الناموسية في السطح إلا أنه يأبى. تدرب منذ صغره على حمل الأثقال ليخفف ألمه. وكأنه يصارع وحش أخيه ليتغلب عليه، حتى صار أطفال الحارة يهابونه ويتعدون عنه، لكن ذلك لم يشغل باله، فالكل في نظره ألسنتهم طويلة وعيونهم ضيقة ولا يحملون في دواخلهم سوى الحقد.



انكسر الجبس أخيراً وصاح يزيد بألم؛ فضحك عليه صديقه منصور: «يا أخي ما قتللي كيف السيارة اللي صدمتك وهربت؟

شكلها هي اللي متكسرة مو انت».

وبانفعال أقرب إلى العصبية صرخ يزيد في وجه منصور: «الله يقطع إبليسك. تضحك علي ورجولي تقول أحد صب عليها جمر». وما زاد رده منصور إلا ضحكاً.

وبدأ الطبيب المصري بمعاينة الساق ونصحه بالعلاج الطبيعي، رد منصور باستهتار: «هذا قط بسبعة أرواح. ما عليك دكتور كمل».

بدأت الممرضة بكسر جبس الذراع أيضاً. وما بين ألم الساق وطرق جبس الذراع استعاد ذكرياته عندما وصل مكة ومر بين الدكاكين، كان أحدهم يطرق على النحاس، ومن على بُعد شاهد

دكان والده بإدارة العم صديق والده الذي استقبل يزيد بحضن أبوي لم يشعر به يزيد. أخبروه بأن عليه أن يدرب يزيد على مهنة بيع القماش وسوف يبيت في إحدى شقق عمارته، وعليه أن يهتم به وسيجزيه الله خيراً على اعتنائه يتيماً.

حتى ذلك العم لم يسلم من يزيد فمن أول نظرة لم يستسغه الأخير ولم يتقبل منه أي نصيحة، كلما كان يقسو عليه في تدريبه كان يزيد يصرخ قائلاً: «لا تصرخ علي زي أبوي. ناقص أنا».

سنين طويلة ضاعت على يزيد. لم يهتمه مصلحة العمل، يأخذ الكثير من المال ليصرفه على أصدقائه ليكسب ودهم، حتى لو اضطر أن يستدين من أجل شهواته. فإن لاهقه الدائنون يبيع إحدى الشقق في عمارته، حتى لم يتبق من العمارة أي شيء. ثم تدهور

العمل في مهنة القماش لأنه كان يصرف كل ما يكسبه ذلك العم، وعندما يرفض كان يقول له: «اطلع برة الدكان، إنت تشتغل عندي».

حتى ترك الدكان ذلك العم عندما ضاق ذرعاً، فعين أحد الأجانب محله ولم يستطع الأخير أن يكسب، تراكم الإيجار على أحد الدكانين، حتى اضطر يزيد أن يبيع الدكان الذي يملكه، ليسدد المتأخرات، وبمرور عام 1962 لم يتبق أي شيء في يده، فارقه أصدقاؤه عدا منصور الذي وقف بجواره كساعد أيمن للتبذير والإفلاس.

ما دفع منصور لتحمل يزيد هو أن الأخير كان يغدق عليه فيما مضى، بالإضافة إلى أن شخصية منصور ضعيفة أمام يزيد، والسبب الأهم هو أن منصوراً يعرف أنه سيضيع بدون يزيد، وأن القدر لا بد سيبتسم ليزيد يوماً ما فيعيد أمجاده. كان تابعاً غيباً. غثاً وشريراً.

برغم كل هذا فإن يزيد يعرف أنه يحتاج إليه، فالوحدة صعبة. لم يبق أمام يزيد سوى أن يبحث عن أخيه، فوجده وقد أنعم الله عليه بدكان صغير جميل في شارع قابل، ويعيش في نفس البيت الذي ولد فيه، تزوج وأصبح الجميع ينادونه أبو عمران.

كم يكره أخاه؟! كم يحقد عليه؟! حقق كل آمانيته في الحياة وأعطاه الله كل ما يفتقده هو، لاحقته كثيراً بعد سنوات فكان وكان يقدم إليه بعض المساعدة أحياناً، وعندما بدأ أبو عمران يتذمر أصاب يزيد الغضب فاخترع حكاية جديدة تقول أنه غشه في تقسيم التركة.

كان يزيد يعرف في قرارة نفسه أنه أخذ أكثر من حقه، لكن أبا عمران هو المصدر الوحيد المتبقي للحصول على المال، فكانت قصة الاتهام في توزيع الثروة مدخلاً ليطالب بالمزيد من المال.

وما ساعد يزيد في ادعائه ذلك هو موت أصدقاء والده الثلاثة، لقد فارقوا الحياة، أحدهم هو الذي كتب صك توزيع الإرث والاثنان شهود. جميعهم اختارهم الله لجواره فكان عدم وجودهم لصالح يزيد.

وبرغم كل هذه التصرفات التي بدرت من يزيد لكن أبا عمران يتحمل ويغفر حتى انقطعت أخباره فترة ولم يجده في أي مكان، وسمع قبل عدة شهور من أحد الأشخاص أن أخاه في مكة صدمته سيارة. فبحث عنه كثيراً حتى توصل إليه.

برغم كل ما بدر من يزيد كان أخوه يتحمل ويغفر حتى انقطعت أخباره لفترة ولم يجده في أي مكان، وسمع قبل عدة شهور أن أخاه في مكة قد صدمته سيارة. فبحث عنه حتى وصل إليه.

انكسر حبس يده، وصرخ بألم. لم يستمع لباقي نصائح الطبيب وقام مستنداً على منصور وقال: «نرجع البيت».

عاد إلى الفراش. ومد يده وساقه. كان منصور متعجباً من تصرفات يزيد وتلك الزفرات التي يصعدها وكأن هنالك شيئاً لا يفهمه أما يزيد فقد تمرغ في وحل الأفكار السوداوية وهو يواسي نفسه ويتوعد: «هم اثنين».

ثم قال بصوت خفيض: «بس واحد.. واحد».

5

وقفت ستي حسنية عند الباب متسائلة عن زيارة صفية في وقت كهذا. وأعادت جملة: «أمك عارفة إنك هنا؟» عدة مرات دون الحصول على إجابة. حتى قالت لها زكية: «يا ستي. إيوة أمها عارفة». فتركتهما ودخلت وهي تقول: «الله يجيب العواقب سليمة مو مرتاحة لهذي الزيارة».

شربت صفية الماء وقالت: «فين نبيل؟»

ردت زكية وهي ترضع عمر وتقول: «والله ما أعرف جاني الظهر وقال إنك راح تيجي وطلب مني ضيافتك وما أعرف ايش السبب ولا جا على بالي إنك تيجي في هذا الوقت».

ردت صفية: «أنا هربت عشان نتجوز».

شهقت زكية من الخوف وأوقفت إرضاع عمر الذي بكى وقالت: «يا لطيف. منجد؟. ما أعرف شيء عن الموضوع!!»

«هو كتبلي كده في الرسالة اللي جبتي لي هي الصبح وقال إنو راح يجيب العمدة عشان نتجوز ونحط أهلي في الأمر الواقع».

«لا حول ولا قوة إلا بالله. ليش وصلت الأمور لكدة؟» قطبت صفيه جبينها خوفاً لكن زكية حاولت طمئنتها «إن شاء الله خير. قومي أعطيك من ملابسي ونامي والصبح رباح».

فقلت صفيه بمن يتضرع رجاء وتوسل «يعني نبيل ما يجي؟» ردت زكية «حتى لو جا ما يصير ييات هنا. أنا رايحة أجيئك لقمة تأكلها. بعدين قومي نامي في غرفتي أنا أنام هنا».

ارتاحت صفيه، ثم دخلت غرفة زكية ووضعت رأسها على المخدة. آن لها أن ترتاح وتهداً عواصف قلبها الهائجة. فنامت نوم طفل صغير.

استيقظت على صلاة الفجر وسمعت ستي حسنية تصلي وتعلي صوتها: «يا رب اهدي الشباب لا حول ولا قوة إلا بالله».

مر الصباح ثقيلًا.. ما بين انتظار. ولهفة وأمل. وصفية لا تعرف ماذا حصل في بيتها. لا بد أن الدنيا انقلبت بالأمس. لا بد أنهم بحثوا عنها. فليفعلا. لا يهمها. المهم أنها الآن ستتزوج من نبيل.

جاء الظهر. وزكية تعبت من الترحيب. وحل مكان موقفها الخوف من المستقبل. جلست صفيه في الغرفة مع عمر الطفل الذي يغنج. وضعت أصبعها في يده فأمسكها. فابتسمت له:

«عمر يا نونو إنت. أنا زوجة خالك نبيل».

بعد الغداء قالت ستي حسنية: «يا بنتي ارجعي لأهلك».

كرهت صفة نظراتها وتعليقاتها. وتمنت في قلبها لو ترسلها إلى التكية⁽¹⁾ ردت زكية: «يا ستي حسنية سييها في حالها اللي فيها مكفيها».

وجاء اليوم التالي دون أي خبر. زكية التي كانت صديقتها قل الكلام معها. وصارت مجاملة ضيافتها ثقيلة بطيئة دون أي ترحيب أو ابتسامة. تساءلت صفة: «فين نبيل؟»

لم تعرف زكية ولا ستي حسنية إجابة سؤالها. حتى دخل اليوم الثالث الذي كان وقعه كبيراً على قلبها. تسلل الخوف واليأس إلى نفسها. لم تنم طول الليل، كانت على وشك الانهيار عندما قالت لزكية: «أكيد نبيل صار لو حاجة. أكيد أبوي آذاه أو حتى قتله».

ردت زكية بحدة: «أعوذ بالله. ايش هذا الكلام والله لو صار شيء في أخوي ما راح أعيش دقيقة».

ربما كان لنظريتها وقع كبير على زكية التي كانت في هلع وخوف. ولكن هذا الشعور ليس فقط على أخيها. بل لأن حسين سيأتي من مكة في العصر ليصطحبها. فبعد عدة أيام سيأتي رمضان. وهو قد وعداها قبل أسبوع أنه سيأتي.

لم تستطع صفة الأكل. فانهارت على سفرة الأكل وقالت:

«أكيد أبوي آذاه. زكية ايش أسوي؟»

(1) التكية: وأحياناً يسمى الرباط هو دار العجزة، وهو عبارة عن مكان مخصص لإيواء الضعفاء وكبار السن واستقبال الصدقات من أهل البلدة.

أما زكية فقد تهدج صوتها وهي تقول: «حسين جاي اليوم العصر وأنا خايفة لو عرف ممكن يطلقني لأنني اشتكرت في حاجة زي هذي».

كان عمر يبكي عندما سمعوا فجأة صوتاً قادماً من الدهليز:
«صفية. انزلي».

«صفية. انزلي»

تمنت صفية أن يكون هذا صوت نبيل لكن. اقتربت العجوز من فوق الدرج وصاحت كأنما تبلغ عن مجرم هارب: «ايوة.. صفية هنا».
سمعت الصوت القادم من الدهليز: «يا صفية انزلي أوديكي بيت أبوكي. أنزلي. أنا عمك عثمان».

قالت زكية بصوت خافت: «هذا عمي عثمان. العطار في سوق الندي صاحب أبوي».

لم تعرف صفية ما تفعل! هل تنزل أم تبقى؟! كيف تسلم نفسها للموت. لم تعرف ماذا تفعل عندما انهارت زكية.

«حسين راح يجي العصر. ما أبغى بيتي يتخرب. وما أعرف فين أخوي؟».

وأجهشت في البكاء مع طفلها عمر. سمعت الجدة تقول:

«قومي يا بنتي روعي بيتكم. قومي أنزلي».

ذهبت العجوز عند الدرج وصرخت للعم عثمان من فوق الدرج: «ما صار شيء ونيل ما بات هنا من 3 أيام. ببتكم سليمة. هي بس جات تبات عند صاحبته كم يوم. ببتكم سليمة».

كان عمر يكي على بكاء أمه. وصوت عم عثمان من الدهليز يصعد بصدى: «يا بنتي صفية انزلي أنا راح أوصلك للبيت. انزلي يا بنتي. الله يهديكي انزلي».

قامت صفية ولبست عباءتها وقالت مترددة من فوق الدرج: «أبوي راح يقتلني».

فأجاب: «لا ما راح يقتلك. أنا بنفسى راح أوصلك أنزلي يا بنتي الله يرضى عليكى».

أخذت صفية بقشتها وفيها قرآنها وبعض من أغراضها وملابسها. ونزلت بهدوء. حتى إن زكية لم تقم لتودعها. وكانت ستي حسنية تشير بيدها بمعنى: «على بركة الله روجي بيتكم».

نزلت بهدوء. درجة درجة وهي تتأمل حوافها. بعضها متكسر وبعضها مائل، عندما وصلت أشاح عم عثمان بوجهه وقال: «امشي وراي يا بنتي الله يرضى عليكى».

مشى العم عثمان ومشى وراءه. الآن تنظر للأزقة وتعرفها جيداً. كل شيء تعرفه تماماً.. مشى وكأنها تذهب إلى جبل المشنقة.. تركت زكية لأن لها بيتاً ولا تريد أن تخربه لها. تركت

بيت زكية لأنها قلقة على نبيل. فإن كانت التضحية بحياتها ستقذ حياته ستفعل. توقفت عن المشي مراتٍ عديدة لكنها كانت في كل مرة تعود لتتابع السير خلف عم عثمان الذي يردد طوال الوقت: «لا إله إلا الله محمداً رسول الله» و«حسبي الله ونعم الوكيل».

مشت وراءه لا تعرف ما ينتظرها. صوت احتكاك حذاءها على التراب له حدة وجلجلة مخيفة.

هل سينظرونها بسكين لذبحها، أم بحبل لشنقها.. كيف تعود للبيت الكريه العفن الذي طالما كرهته. لم تكن لها حيلة سوى مواصلة السير خلف عم عثمان الذي أوصلها حتى باب المنزل وصاح من تحت الروشان: «أم محسن بنتكم هنا. زي ما وعدتوني لا تؤذوها. البنت سليمة».

طلعت مرة أخرى الدرج. هذا الدرج الذي لم تكن تتوقع أن تعود وتراه وتصعد عليه. دخلت لتستقبلها أمها فتحية بصفعة قوية طاحت بسببها على الأرض وقالت وهي تصرخ وتشتتم: «جبتيلنا العار».

حاولت نورية أن تدفع أمها التي أغمي عليها. صرخت نورية وبكى حسان. وأحضرت بصلاً من المطبخ. تلقت صفية الصفعة ولم يتحرك لها ساكن.

صعد الأب فانخلع قلبها. دخل وفي يده حزام من الجلد وأخذ يضرب صفية على ظهرها. وهي تصرخ من الألم والهستيرية:

«أحسن. أحسن. ليش رفضته».

فيصعد عثمان الدرج وهو يصرخ خارج الباب لأنه لا يستطيع الدخول على أهله: «أبو محسن وعدتني. يا أبو محسن أهلك جوة ولا كان دخلت. سيب البنت ما صار لها شيء».

ركلها الأب وتفل عليها وهو يقول: «لا بنتي ولا أعرفك».

وقتها انهارت صفية: «أبغى أموت. ما أحبكم. أكرهكم كلكم».

نورية وحسان يكون على أهمهم التي مازالت تتنفس بصعوبة.

والأب يقول: «فتحية. فتحية. فتحية إنتي بخير؟ فتحية ردي».

صبوا بعضاً من ماء الورد من المرش⁽¹⁾ على وجهها. حتى أفاقت. ونامت صفية مرة أخرى بكدمات على وجهها وظهرها.



دق حسان باب الداية.. مراراً وتكراراً. حتى فتحت: «أمي تزهم⁽²⁾ عليك. تقول تعاليلها ضروري».

لم تعرف الداية لم العجلة. فالحياة حياة. والمكتوب عند الله مكتوب. ولكن الغريب أنها لا تعرف أحداً سيلد في بيت أبو محسن. مشت خلف حسان. وعندما اقتربت من المنزل شاهدت أبا محسن تحت باب بيته جالساً على «الدكة» فقالت:

«سلام عليكم يا أبو محسن. كيف حالك يا ولدي؟»

(1) المرش: آنية تراثية مصنوعة من المعدن أو النحاس تستخدم لرش العطر.

(2) تزهم: أي تنادي.

رد أبو محسن بصوت مهذب بعدما عدل وضعية جلوسه وأرعى رأسه على الأرض: «أهلاً بخالة لطفية».

صعدت بسرعة خلف حسان الذي دق على الباب ثم نزل وهو يقول «أمي فوق».

فتحت فتحة الباب وعلى وجهها آثار قلق جارح.



كانت نورية تدفع بكتف صافية لتستيقظ. عندما دخلت خالة لطفية العجوز وهي تقول لأُم محسن: «أوه يا بنتي. اتولدتني على فتح جدة. وجهك حلو على الحجاز كلها. عايشين بنعمة في عصر السعودية».

كانت فتحة ترد قلقة وتبتسم مجاملة وفي قلبها مرجل يغلي.

أكملت الداية: «الله يرحمك يا الملك عبد العزيز مت قبل 7 سنوات شوفي كيف السنين تجري يا بنتي يا فتحة».

أردفت وكأنها تكلم نفسها فلا أحد يستمع إلى ما تقول:

«والخير في عهد ملكنا سعود الله يطول في عمره».

ثم توقفت عن عالمها الموازي ثم سألت: «إيش مطلوب مني دحين؟».

ردت فتحة وهي تشير لنورية بأن تخرج من الغرفة وقالت بصوت منخفض: «بنتي صافية طاحت من الدرج أمس. وخايفة».

خايفة صار لها شي انتي فاهمتني».

الداية لم تكن بذلك الغباء لتبتلع قصة السقوط ولكنها تظاهرت بالتصديق حتى لا تجرح مشاعر الأم.

همهمت الخالة لطفية وهي تقول: «شوفتوا دم؟».

ردت فتحية وهي ترجف وقالت: «لأ».

وقامت الداية تغسل يديها وهي تطلب من فتحية أن تمدد ابتتها تحت الروشان حتى تستطيع تمييز ما تطلب تحت أشعة الشمس. وصفية غاضبة بصمت ولكنها مستسلمة لكل ما ينالها من عقاب. تمددت تحت الروشان. بلا مخدة. ولا ملاية على الأرض. جاءت الأم ووضعت شرشفاً على النصف الأسفل من صفية الممددة ودموعها تهطل على خدها وعلى شعرها الجميل.

كل شيء فيها مستسلم. وعيونها على الجدار. تغمض عينيها فتساقط الدموع. ثم تمتلئ عيونها بالدموع مرة أخرى.

تأكدت الداية من فتح النافذة قليلاً. ومن خلالها تساقط الضوء البهيج كشلال منهمر على أرضية الغرفة. وتصاعدت رائحة السجاد مع دفيء ضوء الشمس.

اقتربت الداية وفتحت ما بين فخذيها. وفحصت.

كان الموقف مُهيناً لصفية. وهدرأ لأنوثتها أمام الداية التي قالت محاولة تخفيف وطأة ما تفعله: «يا بنتي لا تنكسفي أنا راح أولدك لما تتجوزي. زي ما ولدت أمك فتحية وأخواتك».

شهقت صفة بصوت مكتوم. حتى فرغت الداية وقامت وقالت: «بتك سليمة ما بها شيء».

وقتها انهارت فتحة على «المقعد» وبدأت بالبكاء. غسلت الخالة لطفية يديها.

أما صفة فلم تتحرك من مكانها. والدموع مازالت تنهمر من عينيها ولم تغير وضعية جسدها. وكأنها أغتصبت.

سمعت صوت الماء من المغسلة. وسمعت بكاء أمها مع حشجة. ومواساة الداية لها وهي تربت على كتفها: «البنت سليمة. لا تخافي ما راح أقول لأحد».

وأكملت نصيحتها وهي تلبس عباءتها مرة أخرى: «جوزي بناتك يا فتحة لا يتأخروا في الزواج. البنت مالها غير بيت عدلها».

ثم نزلت. حتى وقع أقدامها سمعته صفة التي امتلأ قلبها حقداً وكرهاً لهذا الموقف.

نزلت الداية وهمست من على بعد متر لأبو محسن: «البنت سليمة».

قام أبو محسن وقد زال عنه القلق الدامي. وكأنه يود تقبيل قدميها. أخرج من جيبه عشرين ريالاً وأعطاهما في يديها.

«خيرك سابق أبو محسن». وذهبت الداية. حتى اختفت عن نظره. فصعد مرة أخرى ودخل البيت كثور هائج وهو يصرخ:

«قسم بالله كنت راح أقتلها هذي الحيو».

وكان يود أن يضربها فمنعته الأم وهي تقاطعه وتبكي: «أبو محسن الله يرضى عليك. خلاص. ما بها شيء».

فصرخ على فتحية: «هذي نهاية تربيتك لبناتك».

ثم خرج وهو مهموم مكدر حتى برغم معرفته أن البنت ما زالت بكرًا. ماذا لو عرف أهل حارة الشام بما حدث؟ أين سيذهب ويخفي نفسه من أهل مدينة جدة كلها. إنه يشعر بجفاف ماء وجهه وغصة حارقة في حلقه.



هلّ شهر رمضان. وبدأ الناس يستقبلونه ضيفاً عزيزاً على النفوس. علقت القناديل والأتاريك هنا وهناك. تهادى الناس بالتمور والسمن. اشترى الناس الحب وقارورة الفيمتو والسن كويك من أبي محسن الذي كان يبيع وهو مهموم. مع الطلب المتزايد على «الماسية» و«نجوم الليل» و«التطلي». كان أبو محسن غارقاً في الحزن متجهماً فمن سكر لطحين ورز. كان يبيع بعبوس وصمت.

تعانقت بيوت جدة مع بعضها مع عناق الجيران والأحبة. فمن كان على خلاف مع أحد يتسابقون ليسلموا على بعضهم البعض. كيف لا ورمضان الشهر الفضيل قد حل. ليحل به الشرور من أفئدة الناس. ويملاًها طمأنينة ورضاً.

كانت أولى الأسابيع كفيلة بأن تنسي عائلة أبي محسن جرحهم

الغائر الذي سببته صفة، والذي ساعد على نسيانه وتجاوزة قليلاً أنهم لم يسمعو من أحد أي تلميح أو إشارة. وكان الفضيحة دفنت. واستمرت الحياة.

أما بالنسبة لصفة فكانت أسود أيام حياتها محبوسة في غرفتها لا تكلم أحداً. حتى نورية وحسان أخوها الصغير الذي يرمقها بنظرات الملامة. لم تشارك أهلها طعام الإفطار وكانت تأكل وحدها. فقدت الكثير من وزنها ورونقها. حتى عندما رأت نفسها في المرأة لم تصدق. حتى برغم اختفاء البقع البنفسجية من أثر ضرب أبيها لها.

كان جُل ما تفكر به هو ماذا حل بنيل؟ ما الذي أخره حتى الآن؟ ولماذا لم تسمع منه؟

في منتصف رمضان رنّ الهاتف. وأجرت فتحة حواراً. ثم سمعت صفة والدتها تقول لأبي محسن: «أم حسين زوجة شيخ عطارين مكة جاية اليوم بعد صلاة التراويح مع أهلها بيخطبوا واحدة من البنات».

عندها سقطت المعلقة مرة أخرى في شورية صفة واقتربت أكثر لتسمع الأب: «عندهم أخو حسين اسمو مروان».

ردت الأم باستغراب: «والله يمكن يا أبو محسن. ما قالت جاية لمين. إيش رأيك؟».

«خليهم يجوا ويخطبوا وبعدين نحنا الرجال نتفاهم. والله عيلة حسب ونسب، قدمي لهم نورية».

لم يكن أبو محسن موفقاً في تفكيره. فقد كان من الأولى أن «يتخلص» من صفية ويرتاح من الشر الذي ألحقته به، لكنه فكر بأن نورية تستحق هذا «البخت والنصيب» الجميل نورية أحق به، فهي المطيعة التي سترفع رأسه أمام هذه العائلة النبيلة. لا يهمه صفية لأنها في كل الأحوال كالسجينة لا حول لها ولا قوة.

كانت الأم مازالت تكلم صفية بحدة وصرامة وتخاطب نورية بعطف وحنان. خاطت لها كرتة⁽¹⁾ جميلة جداً وقامت بقص أطراف شعرها. فدخلت نورية في عالم وردي. صارت تتأمل نفسها في المرآة كثيراً. وتقضي الوقت الطويل أمام الصندوق الخشبي للزينة، مع الكحل والعطر. وتمشط شعرها. وتقول في نفسها «ماني أقل جمال من صفية».

شعرت نورية بأن الدنيا ستبتسم لها أخيراً. وكيف بعريس مثالي كمروان. وأهله من خيرة أهل مكة.

مروان لا ينقصه شيء وهو خريج المدرسة الصولتية بمكة وهي من أعرق المدارس هناك. وأخيراً سيتحقق حلمها بثوب أبيض وزفة. وحنة. وأهل زوج.

عاهدت نورية نفسها بأن تكون الزوجة المطيعة لأهل زوجها.

ستطبخ لهم. وتنظف البيت وتغسل الملابس بيدها كما علمتها والدتها، وستنشرها تحت الشمس، وتثبت لهم بأنها أهل لهذه الخطبة. في المقابل لم تر صفية نفسها لأسابيع عديدة حتى نسيت كيف يبدو شكلها. وكانت تتحاشى النظر في المرآة كلما توضأت.

(1) الكرتة: فستان.

وفي اليوم الموعود وبعد صلاة التراويح. فاح عبير البخور
من منزل أبي محسن وتسلسل عبر الدرج ومن الرواشين. ووصل
الضيوف: أم حسين وأختها وكذلك البنات حياة ورحمة وآمنة.

كانت صفية في المطبخ. بملابس رثة. تجهز الشاي وبعضاً من
الكعك على الصحن. قالت لها نورية بطريقة مستغزة: «والله ما
أتخيلت نفسي أخطب قبلك يا صفية».

ابتسمت صفية ولسان حالها يقول: «ومن قال لك أنني أصلاً مقهورة».
استمرت نورية في استفزاز صفية حتى صرخت صفية بصوت
منخفض: «أحسن اتجوزي أرتاح منك ومن خلقتك».

جهزت صينية الشاي وناولتها لنورية فجاءت الأم وقالت:
«خليكي يا صفية. تعالي يا نورية قدمي الشاي للضيوف».

حملت نورية الصينية وهي خجلة ووجتها حمراء أضفت
عليها الكثير من النعومة والأنوثة. وقدمت الشاي للكل وسحبت
نفسها بكل خجل وقلبها يدق بقوة.

بعد دقيقتين جاءت الأم وجبينها مقطب وقالت لصفية: «تعالي
زي ما انتي وسلمي على الضيوف».

وقتها بهتت نورية في مكانها.



عندما قدمت نورية الشاي وخرجت من الغرفة. نظرت أم

حسين إلى حياة بنظرة اتفاق فحمحت حياة بصوتها وقالت:

«خالة فتحية فين صفية؟ نبغى نشوفها».

وقتها عرفت فتحية أن الضيوف لم يأتوا إلا من أجل صفية،
وأنها هي المطلوبة وليس نورية حتى برغم أنها قدمت لهم نورية
بكامل زينتها. قامت وذهبت للمطبخ ورأت ابنتها بملابس البيت.

وشعرها غير ممشط فقالت: «تعالى زي ما انتى وسلمي فطلبت
منها السلام على الضيوف كما هي في محاولة منها أن تقنع أهل
العريس بأن نورية هي الأنظف والأجمل».

فتحت صفية فمها من التعجب. ثم ابتسمت ابتسامة شر لأختها
نورية التي صار وجهها مصفراً من الخيبة والخذلان. لم تمشط
صفية شعرها بل أزالَت رِبطة الشعر فانهمر على كتفها كشلال بني
اللون. ودخلت بملابس البيت غير المهندمة للضيوف. ومع كل
هذا بدت رائعة الجمال. شحوب وجهها لم يزدها إلا جاذبية.

وعيناها الغائرتان من البكاء والهم بدتا براقنتين. قال الجميع:
«ما شاء الله تبارك الله».

سلمت صفية عليهم. وأشارت لها حياة أن تجلس بجوارها.

بينها وبين خالتها. عرفت أن صديقتها «زكية» زوجة حسين
لم تكن معهم. وليس لها أن تعرف ماذا حل بنيل. ولكن
بالمقابل رأت حياة ورأت آمنة ورحمة التوأم اللتان تعرفت
عليهما يوم الرحمانى.

بعد نصف دقيقة قالت الأم بصرامة: «صفية روعي ساعدي أختك نورية في المطبخ».

بهذه الجملة أنهت فتحة رؤية الضيوف لصفية. فقالت أخت أم حسين: «والله اليوم جايين نخطب بنتك صفية لولدي عبد الفتاح».

خيمت علامات التعجب على المكان. وارتاحت فتحة قليلاً. وكذلك نورية. فقد تسلل الأمل إلى قلبها مرة أخرى.

فهم لم يحضروا من أجل فارس أحلامها مروان.

أما صفية فقد تجمدت ناحية المطبخ عندما سمعت اسم «عبد الفتاح».

واصلت الأم حديثها قائلة: «ولدي عمره 23 دحين وبيدرس طب في بريطانيا من سنتين. وإذا صار نصيب صفية بتروح معاه تعيش هناك».



«عبد الفتاح؟!»

قالها أبو محسن متعجباً من الموضوع. بعد خروج الضيوف وإخبار فتحة له بكل تفاصيل الزيارة والخطبة.

كانت صفية في الغرفة قلقة. ما زالت تحلم بنيل.. ولكن أين نبيل؟

لم يكن القرار قرارها بعدما أخطأت في حق والديها. لم تستشرها الأم ولم يستشرها الأب الذي بدأ بالسؤال عن العريس.

كان أبو محسن يجلس على الكرسي مهموماً مع صديقه العم عثمان أمام دكان الأخير، الذي قال: «والنعم بعبد الفتاح وأبوه.

ناس طيبين من الطائف اتوكل على الله أبو محسن».

أكمل: «وأرسلوني عندك الجماعة أخذ الجواب. وإذا رحبت بهم جايين عندك».

رد بأهية عريضة: «والله يا صاحبي. خايف بعيدين يعرفوا بقصة هروبها و».

قاطعته العم عثمان: «لا تجيب السيرة. أنسى وأتوكل. أتوكل يا أبو محسن».

فرد أبو محسن: «ونعم بالله.. أتوكلنا على الله بلغ الجماعة يشرفوني».



على الدكة أسفل منزل أبو محسن وصل الضيوف في إحدى الليالي قبل العشر الأخير من رمضان. وكان يترأس مقدم الرجال أبو حسين، شيخ العطارين بمكة وابنه حسين وكذلك العريس عبد الفتاح وأبوه.

كانت نورية وأمها تنظران من الروشان يودان رؤية العريس. وكانت تشاركهم جارتهم أم ياسمين. أما ياسمين فلم ترها منذ تلك الليلة ومن نظرات أم ياسمين علمت أنها عرفت بقصة هروبها. لذلك قطعت صداقة ابنتها معها.

كانت صفية بعيدة عنهم.. تخشى الاقتراب. وسمعت نورية تقول: «يالله هذا هو العريس يا ماما؟. أسمر وقصير». ثم أكملت: «شكله بدوي زي أبوه».

ردت فتحية: «لا تقولي بدوي يا بنت. كلنا حجازيين».

وقتها دخلت صفية الغرفة خائفة وبدأت عيناها تدمعان. لا.

كيف يمكن للقدر أن ينتقم منها بهذه البشاعة. إنها صفية آية الجمال والحسن. إنها صفية أجمل بنت في جدة. بل في كل مدن الحجاز.

كيف يكون مصيرها لشاب عادٍ من الطائف. أسمر وقصير.

ناولت فتحية صينية الشاي لحسان الذي نزل وقدم الضيافة للضيوف وسمع الجميع أبا حسين شيخ العطارين يقول: «اليوم جاينين نطلب إيد كريمتكم صفية لعبد الفتاح ولد عديلي»⁽¹⁾.

ثم نظر إلى الأب الخجول الذي يبدو ضعيفاً بلا شخصية بجانب عديله فقال بصوت هادئ: «نحن نعيش في الطائف وعندنا ملحق كامل لعبد الفتاح. زبطناه للعرسان. بس هو راح يأخذ عروسته معاه بريطانيا. باقيه ثلاث سنوات ويخلص ويصير دكتور».

رد أبو محسن: «ما شاء الله، ما راح نلاقي أحسن منكم».

رفع العمدة يده قارئاً الفاتحة ورفع الجميع أيديهم متممين بآيات سورة الفاتحة ثم مسحوا وجوههم بأيديهم وتعالَت أصواتهم بكلمة: «آمين». وانطلقت زغاريد النساء من على الروشان.

(1) العديل: هو زوج أخت الزوجة.

قال أبو حسين لعبد الفتاح: «قوم بوس رأس عمك».

قام عبد الفتاح وقبل رأس أبي محسن.

أكمل الرجال تخطيط الزفاف وتحديد موعد للزفة بعد العيد وطلب عبد الفتاح من أبو محسن أن يصدر جواز سفر لصفية حتى يتسنى له طلب تأشيرة دخول بريطانيا.

انطلقت زغاريد النساء من على الروشان مرة أخرى وملأت أزقة حارة الشام.



كل شيء يمر بسرعة. يبدأ الأسبوع وينتهي بسرعة. فلا يتذكر الناس كيف انتهى رمضان بتلك السرعة وكيف للعيد أن يأتي بحلته الجميلة بتلك السرعة. كان الناس فرحين وهم ينفضون الجلايل⁽¹⁾ بالعصي لإزالة ما علق بها من الغبار، فيما تتلقى الرواشين الحجازية حماماً دافئاً يعيد إليها بريق خشبها المعهود.

تهادى الناس «الديبازة» و«المعمول». الأطفال فرحون يطرقون أبواب الجيران قائلين: «أمي تسلم عليكم وتعطيكم هذا».

في الليلة الأخيرة من رمضان، وبعد ثبوت الرؤية وإطلاق المدفع إيذاناً بدخول عيد الفطر المبارك، يردد الأطفال أغاني مؤثرة في توديع الشهر الكريم، وسؤال الله أن يعيده عليهم.

(1) مفردها جلالة بكسر الجيم وهي السجادة.

كم تمت صفة أن تمت تلك الفترة طويلاً فلا تواجه مصيبة زفافها من عبد الفتاح.

من هو من الأساس؟ لا تعرف عنه سوى أنه «شاب أسمر وقصير».

كانت تلك الكلمات ترن في مسمعها وتشعرها بالخزي والدونية.

كانت تنظر إلى أمها التي انشغلت بتجهيز ابنتها للزفاف دون حتى أن تنظر إليها أو تسألها. لقد قرر والدها وأمها أن تُزف لعبد الفتاح وحُسم الأمر دون أن يكون لها أية خيرة من أمرها.

كم هو صعب أن تمر الأيام بسرعة وهي مازالت قلقة على مصير نبيل. ولا تعرف شيئاً عنه. تعرف تماماً أن أخته زكية ستكون من المدعويين. نعم ستسألها عن نبيل وماذا حل به؟ مهما صار.

تريد أن تعرف ما الذي حل به؟ من الذي وقف حائلاً بينه وبينها. من الذي هدهده؟ ومن الذي ربما ضربه؟ أين هو الآن؟

كلما رأت والدها كرهته. وكلما نظرت إلى أمها حقدت عليها. حتى نورية أختها لا تطيقها وكأنها تسخر منها ومن حظها.

وحسان أخوها الأصغر لا يعيرها أي اهتمام فهو يتبع الموج كيفما كان. و«محسن» الذي وصل بالباخرة من مصر لقضاء إجازة العيد لم يكن لها يوماً الأخ الأكبر الذي تحبه.

فجأة شعرت صفة بالوحدة. فليس هنالك من يحبها حولها.

لَمْ لا تتزوج. نعم. لَمْ لا.؟. إذا كان عبد الفتاح طوق نجاة

يخرجها من بحر الكآبة والسجن والعبودية. فلا يهم من هو الذي ينجيها إن كان وسيماً أو كان بشعاً. إن كانت تحبه أم لا.

لم يمض وقت طويل على هذا القرار والتأقلم النفسي لما هو قادم. حتى وجدت صفيّة نفسها تلبس الملابس الجميلة في غرفتها وسمعت الضيوف يقولون: «وصل الرجال من مكة. ما أحلى المعاشر⁽¹⁾». أوه معاهم الجسيس محمد أمان. هذا جسيس شاب طالع في مكة وصوته مرة حلو».

لا تكتمل أفراح الحجازيين عادة بدون هذا المجلس وهو يعتبر مجال فخر للعروسة لأن العريس وأهله يأتون يوم الفرح إلى بيت العروسة ومعهم المدعوون من الأهل والأقارب والأصحاب والجيران ويقف الجسيس عند بيت أهل العروسة لينشد إنشاده الذي يتمايل الحجازيون له ومنه طرباً رجالاً ونساءً، ويحفهم حملة المباخر والأتاريك.

أما الجسيس محمد أمان فقد وقف بالميكرفون وقفة إجلال مع صفة الرجال تحت منزل أبي محسن وبدأ الموال:

على بركات الله فليدرك القصد

وبهناك يا عريس أن زفك السعد

(1) المعاشر: هي أطباق خشبية مسطحة بشكل دائري حيث يتم فيها ترتيب علب الحلوى أو الهدايا التذكارية التي توزع في ليلة عقد القران أو الزواج على المدعوين وتغطي المعاشر بغطاء مزركش من التلّ ذي الألوان الزاهية وتحمل على الرؤوس من قبل الأيدي العاملة المختصة ليكون لها منظر جميل في الموكب.

إلى الدين والدنيا وبالعرز والمنى
تسير وبالأفراح يدرؤك المجد
ومن حولك الأهل والأصحاب كلهم
على سنة الرحمن جمعهم وعدو
أيا دلنا من آل العروس
لأصهارهم بالوصل ظللها الورد
وللسنة الغراء يا آل العريس
سيتم وبالإيجاب كان لكم ردو
فشكرا لمن وافا وشكرا لمن اتى
وأوقاتكم بالبشر والسعد تمتدو
وصلو على المختار ملاح بارق
وما هلت الجوزاء أو أينع الوردو

كانت الزغاريد تتصاعد كلما وقف الجسيس.

تم عقد القران، ووزعت الحلويات. وحضر هذا الحفل كبار
تجار جدة وخاصة من شارع قابل لتقديم التهاني.

في نهاية الحفل نادى أبو محسن ولده محسن وهمس في أذنه،
فأخذ العريس وصحبه من يديه وصعدا وقال: «شوف العروسة.
والشوفة الثانية بتكون يوم الفرح بإذن الله».

دخل العريس وسط أهazيج النساء اللاتي كن ينظرن لأول لقاء للعريس بعروسه. كانت صفية في الغرفة ولم تستطع أن ترفع نظراتها. حتى العريس كان خجولاً جداً فلم يستطع أن ينظر إليها جيداً أو حتى أن يتكلم. أخذ محسن بيده ونزلاً معاً. وصفية لم تلمحه إلا وهو ينزل. لمحة خاطفة. كانت نورية على حق. إنه أسمر وقصير ونحيل.

انهارت صفية في داخلها وكان بודהا أن تصرخ بأنها لا تريد هذه الزيجة التعيسة. لكن لم يكن ذلك من حقها. فهي تخاف الملامة وثورة عائلتها عليها. أن تكون ضيفة ثقيلة وتترك البيت بعد برهة أهون بكثير من أن تستمر في نفس البيت.



جاء يوم «الغمرة» هذه الليلة التراثية التي تناقلتها الأجيال من جيل إلى جيل. لبست فيها صفية نفس ثوب الغمرة الذي لبسته والدتها قبل عدة سنوات.

هذه الليلة التي سبقت حفل الزفاف المزمع إقامته في الطائف. لبست صفية الثوب. وغطت وجهها ببرقع مزين بجنيهات الفضة، حتى لا يرى وجهها إلا يوم الزفاف وتطلع لها طلعة مميزة. تزينت صفية بالذهب ووضعت المشغولات الذهبية التي أهداها لها أهل العريس على رأسها وحول عنقها.

قامت النساء بالطبل والغناء والرقص على أنغام الدفوف⁽¹⁾.

من الأغاني التي رقصت عليها فتحية:

ويلو يم العروسة الله يتم هناكي

ويلو ليلة سعيدة والحبايب معاكي ..

ويلو يم العروسة الله يتم سرورك

ويلو ليلة سعيدة والحبايب يجوكي ..

نقشت الحناء على يد صفية البيضاء. وهي تحاول أن تجد إجابة وتفسيراً لسعادة أمها فتحية التي كانت ترقص وتضحك وتستقبل الضيوف وتزغرد في الوقت الذي ضاقت فيه شرايينها واختنقت آهاتها!!

كانت صفية تتأمل يديها من خلف البرقع ولا تتخيل أنها بعد يوم يستطيع عبد الفتاح أن يمسكها.

وبعدما انتهت المحنية من نقوش الحناء على يد صفية قامت بالنقش على المدعوات اللاتي كن يزغردن ويطلقن الضحكات بقهقهة كرهتها صفية.

وصل العشاء مع التعنيم⁽²⁾ وصفية في حالة أشبه بالدُّوَار.

(1) الدفوف: مفردا دف، وهي عبارة عن إطار من الخشب أو المعدن مستدير يشد عليه غطاء من الجلد.

(2) التعنيم: هي مائدة الأفراح والمناسبات الحجازية ومشتقة من عتمة الليل لأن الناس يقيمون أفراحهم في المساء.

أفاقت على صوت صديقتها «ياسمين» التي كانت تبارك لها. فدبت فيها الحياة وأمسكت ذراعها بقوة وهمست في أذنها من خلف البرقع: «ياسمين. فينه نبيل؟».

ابتعدت عنها ياسمين مستنكرة. فابتعدت بنفور وردت عن بُعد بصوتٍ لا تسمعه بسبب الصخب وهي تقول: «ما أعرف».

كانت حركة جسدها وإيماءاتها وإشاحتها لوجهها كمن يقول لها: «عن إيش بتتكلمي؟».

انخرطت ياسمين مع المدعوين. لم تتوقع صفية ردَّ فعل ياسمين التي أخذت تعليمات من أمها بالألا تكلمها. ياسمين تريد أن تحافظ على سمعتها. فتجاهلت صفية كلية وكأنه ليس بينهما صداقة وأسرار. عرفت صفية لاحقاً أن ياسمين هي من فتن عليها عندما علم أهلها بهروبها. هي من أخبرتهم عن حب صفية لنبيل وهي التي أشارت لأهلها أن صفية قد تكون في بيت زكية.

عرفت صفية لأول مرة أنه زمن الغدر والخيانة. والناس قد يتسمون ويربتون على الأكتاف وهم يبطنون الغيرة والأنانية ولا يظهرون على حقيقتهم إلا عندما يقع الفأس في الرأس وتتعري المصالح والنوايا. لكنها ستكون قوية كالفولاذ ولن تنكسر أو تتهاوى.

في نهاية حفل الغمرة قامت فتحة بتوزيع التفاسير⁽¹⁾ على

(1) التفاسير: هي الحلويات المغلفة التي توزع على الحاضرات وأحياناً يطلق الوصف للحنة المغلفة التي توزع على المدعوات.

آمىع المءءوءاء اللاءى وءءء بعءهء فءءهى أن ىءضرن ءفل الزفاف فى الطائف.

ءمء ءىاءة فساءها الأىض. وءهزء الأم أغراضها، وفى الصباء وصلء سىارة صغىرة لىقل العروس وأهلها للطائف، وانطلق الآمىع. لم ءكلم صفىة أءءاً لأىام عءىءة.

ءالة الءوار اسءمرء بل زاءء مع اللفاء المءءالية فى طرىق «الكر»⁽¹⁾ الءى ىوصل مكة بمءىنة الطائف الءى ءقع على أعلى الجبل.

وءءء صفىة نفسها كالءروف الءى ىجر للءبء.

وصلء السىارة لقاءة الأفراح وكان لأهل العروس مءءل ءاصٌ ىسءطىعون فىه أن ىلبسوا وىءهزوا. بءأء المغنىة بالغناء.

وءواصل ءضور السىاءاء. رائءة البءور والعطور المءءلفة.

امءزءء بنساءم الجبل الباردة وبعبىر الورد الطائفى الجمىل.

ساءءء فءءهى ابءءها على لبس الفساءن. وىبىما كانت ءضع لمساءءها الأءىرة مع المقىنة⁽²⁾ قالء صفىة لوالءءها لأول مرة:

«أمى.. لىش ما بءطلى فى عىونى؟».

وءءها ءوقءء فءءهى ونظرء إلى عىنى صفىة. لءء كانت لءظة

(1) جبل الكر: ىعء طرىق جبل الكر طرىق شرىان رىس ىربط مكة المكرمة بالطائف، والءى بءأ العمل مع بءاية عام 1958 م وءم افءءاءه رسمىاً عام 1965 م

(2) المقىنة: هى السىءة المسؤولة عن ءزىن العروس.

حزنت فيها على ابتتها. ولم تنبس بكلمة فأردفت صفية: «أمي راح تبكي علي اليوم زي ما كل الأمهات يبكوا على بناتهم يوم الفرح؟»
لم تجب فتحة التي كانت جاهزة هي ونورية وبعض من قريبات العروس ودخلن للقاعة. تاركين صفية بسخط وانفعال لا مبالين بما تشعر.

جاء وقت الزفة. ودخل عبد الفتاح وهو يلبس «المشلع» والذي كاد جسده النحيل أن يختفي فيه. نظرت إليه صفية هذه المرة. لم تشعر سوى بشعور واحد.. الكره.



كان قصر الأفراح كئيماً وقديماً تظهر به شقوق وصدوع ويقال إنه من أفضل القاعات في الطائف. زُفت صفية وهي ممسكة بيد عبد الفتاح متشنجة تسبقها فتاتان تحملان الشمع الطويل، وطفلتان تحملان سلة فيها أوراق الورد يلقونها على ممشى العروسين. أما أمنة ورحمة أخوات العريس فكانتا تحملان مبخرتي عود. بدت صفية كالملاك برغم وجهها المنفعل الخالي من أي ابتسامات. حتى شهق كل من في القاعة عند رؤية وجهها وقامتها الممشوقة. وغارت منها الفتيات. والتفتت إليها الأعناق. كانت آية من الفتنة بفستانها الأبيض كانت كالملاك الذي نزل من السماء.

لم يستطع الحضور أن ينظروا إلى شيء سواها. حتى عندما جاء وقت العشاء وفتح الباب على الميز⁽¹⁾ لم يستوعب البعض،

(1) الميز: هو بوفيه الطعام المفتوح.

كان الجميع منبهراً بصفية. وكنّ يقلن لأم عبد الفتاح: «من فين لقيتي هذي العروسة؟».

كانت هذه الجُمْل تدور على ألسنة النساء: «يا محلاً طولها» و«العروسة تجنن» و«فلقة قمر» و«بنت مين هذي؟» كان الجميع لا يتكلم سوى عن جمال بنت العطار من جدة والتي زُفت لعبد الفتاح الذي بدا هادئاً وخجولاً.

كانت صفية تعرف هذه النظرات جيداً. لم تبد أبداً خجولة.

ارتد كبرياءها إليها مجدداً. ونظرت للنساء بنرجسية وبعيونها الكحيلية وثرعها الوردي الأخاذ وشفثيها الحمرابين المكتنزين، كانت مختالة بجمالها مما أنساها الموقف العصيب الذي هي فيه. ومع هذا كانت تشعر بالدوار. كابوس. كابوس قد يغير حالها.

ما أرادت الزواج إلا لتحرر جسدها ونفسها من كل القيود، فقد كانت تشعر بكبت مميت بعد هروبها إلى بيت زكية. وأخيراً. ها هي زكية.

كانت زكية بعيدة عنها لا تريد السلام عليها. نظرت إليها من بعيد وتجاهلتها ولم تسلم عليها. نظرت صفية إليها نظرات ملؤها العتاب. والرجاء والتوسل بأن قولي لصفية: «أين نبيل؟» كانت صفية تقول في نفسها: «هذا مصيري مو لأخوكي. بل لولد خالة زوجك». برغم كل تلك النظرات التي أرسلتها. إلا أن زكية تحاشتها.

حتى برغم خروج العريس من القاعة ومجيئ صديقات العروسة للسلام عليها إلا أن زكية لم تقترب من صفية. كانت أخوات العريس رحمة وآمنة سعيدات بزواج أخيهن من صفية. يتباهين بجمال عروسة أخيهن أمام صديقاتهن. ويبالغن في الاستعراض والرقص مع نورية ومع حياة أخت حسين.

لم تبك فتحية على فراق ابنتها صفية وهذا ما جرحها وأدمى عواطفها، وتحجرت الدموع في مآقيها.



هدأت النفوس. وخف الزحام وانصرف الجميع. وحن وقت ذهاب العروسين إلى منزل الزوجية في سيارة موديل تلك السنة 1960، النوافذ الزجاجية مدهونة بمعجون الأسنان وبعض الزينات الملونة الخفيفة التي تطاير معظمها عندما بدأ عبد الفتاح في قيادتها.

مشى خلفه أقاربه على أنغام المزممار الحجازي يشاركهم محسن أخو العروسة حتى وصلوا بيت الزوجية الذي ستسكن فيه صفية حتى موعد سفرها إلى بريطانيا. لم يسلم عليها والدها ولم يقل مع السلامة، وإن قالتها نورية وحسان ومحسن. لمحت شبح دمعة على طرف عيني نورية عندما ودعتها فمهما كان ستظل صفية أختها الكبرى التي عاشت معها وكبرت في حجرة واحدة.

كان أبو محسن يربت على كتف عبد الفتاح ويقول: «سلمتك الأمانة يا عبد الفتاح».

فرد عبد الفتاح: «صفية في عيوني يا عمي».

دخلت البيت وكان مبخراً بخوراً مختلفاً عن بخور أهل جدة.

كان السرير عبارة عن طراحة مفروشة في الأرض مزينة بـ «ناموسية» جميلة، وكانت الغرفة معطرة. اقترب منها عبد الفتاح.

ولم تخف صفية كثيراً لسبب بسيط وهو أن عبد الفتاح كان خجولاً جداً ولم يجزؤ إلا على تقبيل يديها الاثنتين وطمأنتها بأنه سيكون الزوج المحب المخلص لها مدى الحياة.

* * *

مرت الأيام سريعة، ولم تخرج صفية كثيراً من غرفتها ولم تشارك الأحاديث كثيراً مع أهل زوجها.

لقد انتبهت إلى أن عبد الفتاح ورث الخجل من أبيه، وورث عنه ملامح وجهه وقصر قامته.

عبد الفتاح لا يجزؤ أن يرد أي طلب لوالده ووالدته، كان مطواعاً هادئاً لا يحب المشاكل. لم يكن يتحدث مع صفية كثيراً وإن تحدث فكان يتحدث عن جمالها، لم يحدث بينهما شيء لأنه لم يبادر. موقفه الضعيف جعل صفية قوية جداً، بشخصية حادة أمرة ناهية بعيداً عن أسرة عبد الفتاح.

لم تطل المكوث في الطائف حتى استلمت جواز السفر والتذكر، وكان مسار الطائرة من مطار جدة إلى بيروت ومن

بيروت إلى لندن. لم يودعها أحد من أهلها في المطار وكانت المرة الأولى التي تجرب فيها الطائرة.

كل شيء يبدو غريباً في ناظريها. كانت صفية سعيدة لأنها ستترك ليس فقط بيتها ولكن كل شيء يذكرها بالماضي، أما عبد الفتاح فقد كان الزوج الصامت. وهذا ما جعل صفية مرتاحة لهذه النقلة النوعية في حياتها. وصلت لندن. ولأمت نسماها وجنتيها اللتين أصبحتا باردتين.

ترك عبد الفتاح لها حرية لبسها إن أرادت أن تلبس الحجاب أو تخلعه. ليس هذا فقط. بل ترك لها كل الحرية والتصرف. حرية الخروج أو البقاء بالبيت. كانت شخصيته ضعيفة وهذا ما جعل شوكة صفية تشتد.

انتقلت من لندن بالقطار حتى مدينة «شفيلد» البريطانية في مقاطعة يوركشير. في شفيلد وجدت نفسها تعيش في أحد البيوت الإنجليزية العريقة ذات الطوب الأحمر وبقايا مصانع الحديد.

مرت أيام ثم انتبهت صفية لعبد الفتاح عندما كان يشير إلى «ترام» قائلاً: وهذا Jubilee tram في شارع Abbeydale Road near Beauchief نظرت إليه صفية وكرهت سمرته. وكم من المرات تراءى لها أنها تنظر إليه من الأعلى إلى الأسفل لقصر قامته. أين عبد الفتاح من نبيل؟! نبيل. ذو البشرة البيضاء. ذو الملامح التركية والعيون الملونة. والجسد الممشوق الطويل. والمنكبين العريضين. أين عبد الفتاح منه؟! إن عبد الفتاح لا شيء. إنه نكرة.

إنها تعيش وحدها. ليس له وجود. حتى صوت عبد الفتاح ليس جميلاً. بل حتى اسمه.

بحثت صفية عن وجه نبيل بين الإنجليزين، بحثت عنه بين الأشجار الخضراء. بين أزقة مدينة شفيلد. بين الرياح الهائجة مرة والهادئة الرضوية مرات أخرى. بين هدير محركات القطارات تنادي عليه في صمتها. تنادي عليه وهي تمشي في الشوارع الإنجليزية. تتوقف عندما تستمع لأصوات العصافير تسأل عنه حتى نسائم الهواء والضباب.

مرت سنة كاملة. ولم يتغير شيء. سوى أن الحزن صار أعمق. والصمت صار أشد.

كثيراً ما حاول عبد الفتاح أن يقترب منها لكنها كانت تصده. كان لابد أن ترضخ له ولقدرها معه. فأغمضت عينيها. وتخيلت أنه نبيل. حتى تم بينها وبين عبد الفتاح ما يتم بين الأزواج. فتحت عينيها ووجدته أمامها فبكت. كانت تود أن تصرخ. وتنادي

باسم نبيل. كي تنسى لابد أن تنطلق. تنطلق في اللامكان. في المجهول في عرض السماء وباطن الأرض. تعلمت صفية أن تجري. كانت محرومة من الجري في جدة. تعلمت ألا يمنعها

شيء. تعلمت أن تخرج من البيت ولا تعرف أين تذهب. ولا تنتظر عبد الفتاح الذي كان ينتظرها كثيراً. تعلمت أن تأكل بصمت وتذهب لتنام في صمت. وتخرج لتستنشق الهواء في صمت. أما عبد الفتاح. فبعد علاقته الأولى معها شعر بالدونية.

شعر بانتقاصه لا يعرف معناها. شعر بنقص معنوي ونفسي أثر على سلوكه. وزادت الفجوة بينه وبين صفية. وارتفع جدار الصمت بينهما. كان يدرس بلهفة وشغف وجعل من دراسته تحقيقاً للذات والكينونة. كان ينظر إلى جمالها عن بُعد ويساوره شعور بالخوف إذا اقتربت. يشعر أنها أجمل مما يستحق في هذه الحياة. صفية جعلته ينظر إلى نفسه بازدراء. جعلته يشعر أنه ليس رجلاً بالكفاية. إنه قصير ونحيل. لم يقم معها علاقة سوى مرات نادرة جداً وفي كل مرة لا يستطيع أن يسألها إن كانت سعيدة أم لا. تهرب من الإجابة أو أنها أظهرت له الإجابة. إنه حتماً يشعر باستعلائها. إنه لا يملأ نظرها كرجل. لذا فقد تولدت بداخله عقدة. فركن إلى الانكفاء وجعل من كتبه وصمته أصدقاء له.

أما صفية. فقد ازدادت جمالاً ونضوجاً. لم تزدها حياتها في بريطانيا إلا حرية تافت إليها نفسها كثيراً. فانطلقت كطير يبحث عن مأوى. كانت تحب أن تقضي معظم أوقاتها في حديقة تجلس على مقعد وحدها. تبحث عن حبها الضائع لنيل من بين الأثير. وخلف الغمام. ولمعة النجوم. تتخيله يهتف ويناجيها قادماً ومعه النجوم المتلاثلة حوله ويقدم لها مباحج الحياة في أوجها.

ذات يوم اقترب منها أحدهم وتكلم بالعربية: «تحكي عربي؟» تعجبت كثيراً فكيف لهذا أن يعرف أنها عربية مع أن ملامحها لا تدل على ذلك.

فجلس بجوارها وقال: «بأقضي فرصتي في شفيلد. أنا سامي مهاجر من لبنان. بعيش بلندن».

ولأول مرة تحدثت العربية على أراضي بريطانيا. رحبت به.

فقال: «كل يوم بتقطعي من هون. بأشوفك. ما بتحكي؟».

ردت بحزن: «أنا متزوجة».

قال مبتسماً «شو المشكلة. بس إنتي منك سعيدة».

عندها دمعت عيناها. وأرخت رأسها للأرض. فأردف سامي:

«اشتقت لأهلك؟».

لم تستطع أن تجيب سوى: «ما أعرف».

رد بابتسامة: «بعرف المرة ما بتقول عمرها. بس حشراً فيني

أعرف قد ايش عمرك؟».

ردت صفيّة: «أنا اتولدت عام 1942».

فقال سامي: «العمر كلو. بعدك 19 سنة صبية وحلوة».

ابتسمت صفيّة.

فقال لها مغيراً أسلوب المحادثة: «بتحبي تسمعي أغاني

وموسيقى؟».

فردت متعجبة: «كان عندنا تلفزيون بس أبيض وأسود وعندنا

أسطوانة في البيت اسمها صوت سيده ونسمع بيها أغاني أم كلثوم

وعبد الحليم حافظ».

رد سامي بمرح وهو يقف مبتعداً: «بكرة. هون. بنلتقي بذات المطرح. في إلك هدية مني».

وفي اليوم التالي تحمست كثيراً ولبست لبسها وأخذت معها المظلة وذهبت للحديقة بحماس، جاء سامي بجهاز مسجل بأشرطة كبيرة وأعطاه لها قائلاً: «بهديكي أول غنية. للست فيروز».

ردت صفية وهي تأخذ المسجل: «متى أرجعها لك؟»

رد سامي: «قلتلك هدية. ما بدي منك شي لترجعي تجييلي».

قضيا وقتاً ممتعاً وحكى لها سامي كيف ترك لبنان قبل سنوات بسبب التوترات السياسية الدينية وأزمة كانت تسمى «أزمة لبنان» 1958 حتى إن الجيش الأمريكي تدخل ليخفف التوتر، ترك سامي لبنان مع إخوته وهاجروا إلى بريطانيا وافتتحوا مطعماً في لندن وهذه عادة المهاجرين فطعام بلدهم هو ما يذكرهم بأوطانهم ويستقربون به باقي المهاجرين فيأكلون مع الطعام الذكريات في بلدهم على أنغام الأغاني الشجية.

استمتعت صفية بحديثه وحكاياته، قالت فجأة: «ليش؟»

فرد متعجباً: «ليش شو؟».

فقالت باستغراب: «ليش إنت لطيف معاي؟».

فرد: «بدك الحقيقة؟».

فهزت رأسها. فقال بعد تفكير: «انتي حلوة كثير».

فقالت بصوت منخفض: «بس إنت تعرف أنا متزوجة».

قال سامي: «بعرف. وأنا كمان متزوج بلندن. انتي بتذكريني بواحدة كنت أحبها بلبنان قبل ما أتزوج. تركنا بعض. وإجيت على لندن».

هبت نسيمات باردة حركت شعرها وقالت بحزن: «أنا كمان كنت أحب واحد وما أتجوزنا».

طأطأت رأسها للأسفل وقالت: «ولا أعرف هو فين؟ ولا إيش صار فيه».

فرد سامي: «لا تسألني. مشان يبقى ذكرى حلوة بقلبك».

قام وقبل رحيله قال: «بشوفك السنة الجاية هون.. في أبريل».

رحل سامي. وسط نسيمات تحمل أوراق أشجار معها. وكانت هي أشبه بمحبرة انسكب حبرها. ورضخت لقدر الجفاف.



عادت صفية للمنزل. وأدرجت طرف السلك في فتحة الكهرباء ووضعت الشريط الثقيل. وضغطت على الزر. فسمعت صوتاً شجياً. صوت فيروز تغني:

سنرجع يوماً إلى حيننا ونغرق في دافئات المنى

سنرجع مهما يمر الزمان وتنأى المسافات ما بيننا
 فيا قلب مهلا ولا تترتم على درب عودتنا موهنا
 يعز علينا غداً أن تعود رفوف الطيور ونحن هنا
 هنالك عند التلال تلال تنام وتصحو على عهدنا
 وناس هم الحب أيامهم هدوء انتظار شجي الغنا
 ربوع مدى العين صفصافها على كل ماء وهى فانحنى
 تعب الظهيرات في ظله عبير الهدوء وصفو الهنا
 سنرجع خبرني العندليب غداة التقينا على منحنى
 بأن البلابل لما تزل هناك تعيش بأشعارنا
 وما زال بين تلال الحنين وناس الحنين مكان لنا
 فيا قلب كم شردتنا الرياح تعال سنرجع هيا بنا

سرقتها الألحان. وصوت فيروز الدافئ. أصبح يلزمها.. كلما
 استيقظت. كلما مشيت في الشوارع. وألفتها كأنها حضن، حلم
 جميل دافئ لا تستطيع الإفاقة منه. كانت صفية تسافر مع صوت
 فيروز وهي تغني «سنرجع خبرني العندليب» إلى ربي الحب
 وجنائن العشق. . كانت تسمع للأغنية تحت ضوء القمر، وبعيداً
 عن شخير عبد الفتاح. كانت هذه الأغنية إنعاشاً لقلبها الذي
 كاد يوماً يتوقف عن النبض. عاد مرة أخرى مع روائح الريحان.

تماماً. كيوم شاهدت فيه نبيل على السطح.. نبيل بالعِمة الحجازية البرتقالية. وبصديرية مطرزة. تذكره تماماً عندما قال: «إنتي يا صفية حبي الوحيد تعبت وأنا بعيد عنك. راح أطلب إيدك بكرة ونتجوز وتيجي معاي أمريكا. إنتي حلوة».. تتذكره عندما أمسك بيدها وقبّلها. وأعطاهها زهور الفل.

تستحضر الأغنية حتى لو لم تسمعها. صمت الوجود الذي كان يحوم حولها امتلاً بصوت فيروز. وتحولت أيامها أغنية سرجع يوماً إلى حيناً.

فيما كانت ترتب أغراضها. فتحت مصحفها الذي جلبته من جدة. فسقطت أوراق الفل مع رسالة نبيل الأخيرة لها.

لقد أصبحت بنية جافة. بدون رائحة. إنها تعرف أن الحب يحيي الورود. كما أن روائح الرياحين تعانق العشاق. استوطن الحنين في الأغنية قلبها الحزين. وسافر بها حوار الشام واليمن والمظلوم. دمة من دموعها قد تسقي بساتين الحب الجافة.

وفجأة وجدت الشمعة البيضاء التي أعطاهها لها ذلك الطفل.

الذي وإن لم تخنها الذاكرة اسمه عمران عندما كانت في أوج حسننها وبهجتها عندما قال لها: «كلنا نقول إنك إنتي أحلى واحدة في جدة كلها. ممكن أعطيكي هذي الشمعة».

تذكره جيداً عندما مد يده بشمعة بيضاء من شموع الرحماني قائلاً: «أنا ما ولعتها لساتها جديدة. شوفي».

تعجبت صفية أنها احتفظت بالشمعة وجلبتها مع أغراضها من جدة حتى شفيلد في بريطانيا. ولكن الشمعة كسرت لثلاث قطع لا يجمعها سوى الخيط في الوسط. بكت صفية جمالها الذابل وعلا صوت الأغنية: «وناس هم الحب أيامهم هدوء انتظار شجي الغنا».

إلى متى سيستمر هذا التعب...؟!

أما عالم عبد الفتاح فكان خالياً حزيناً. اعترف في داخل نفسه أنه طالما مقت جسده طوال فترة المدرسة، وعندما حقق تقديراً ممتازاً، حصل على منحة دراسية من أحد رجال الأعمال في جدة ابتعثه على حسابه الشخصي ليدرس الطب. وكأي شاب كان حلم حياته أن يتزوج بفتاة جميلة. اعترف في داخل نفسه أنه حلم أكثر من اللازم. كونه في بريطانيا، رأى الشقراوات الجميلات لم يرض أن يتزوج بفتاة عادية، طالما عرضوا عليه فتيات من الطائف ورفض. لم تعشق أذناه إلا مواصفات صفية عندما عادت أمه من حفل الرحماني وقالت: «لقيت بنت مرة حلوة».

كانت ميزة صفية أيضاً أنها حجازية عريقة، من جدة، ويريد أن يتزوج هذه الزيجة لينسى أصل أبيه البدوي، فكم عايره الحضر في الطائف ومكة.

هو يحلم بطفل بعيد عن سمرته وقصر قامته. ولكن. لم يتوقع أن يُصدم بفتاة متعالية متكبرة. يعرف تماماً أن صفية لم تحبه. إنه يدرك نظرة الكره عندما تنظر إليه. وتستكثر نفسها عليه، لم يكن يوماً الشاب الذي تحلم به.

إنه يعشقها. يتعذب في حبها. وقد أسرته في قفص لا يمكن الخروج منه.

* * *

جاء نبيل كالبدر المنير في ظلمة الليل الحالكة. لا بساً الصديري البرتقالي. نازلاً من درج من السماء. يشع نوراً مديده وقال: «تعالى معي يا صفية».

قالت بصوت واهن: «فين؟»

فقال: «فوق». وأشار للسماء والسحب.

مدت يدها إليه. ومد يده إليها لكن أيديهما لم تلتق. وإذا بنيل يصعد للأعلى تاركاً صفية على الأرض تتضور ألماً وتبكي قائلة: «نيل. خذني. لا تتركني. أنا تعبانة.. تعبانة. نيل».

زفرت صفية زفرة قوية وهي تردد على لسانها: «نيل.. نيل».

ثم استيقظت فزعة من نومها.

حمدت الله أن عبد الفتاح لم ينتبه إليها. قامت مسرعة إلى الحمام وكانت الشمس لم تشرق بعد. وأفرغت ما في جوفها على المغسلة. استمرت في القياء. لفترة ليست قصيرة. فانهارت قواها على أرض الحمام. أسندت ظهرها على الجدار وما بين الدموع كانت تهذي: «أنا تعبانة. تعبانة».

جاء عبد الفتاح مسرعاً وفجع عند رؤيتها على الأرض منهكة مريضة. فقال وهو يحاول أن يحملها: «ايش بك صفية؟ ايش صار؟».

وعندما حاول أن يدس ذراعه تحت ركبتها والذراع الأخرى تحت إبطها في محاولة منه أن يحملها دفعته دامعة: «انت يا دوب تشيل نفسك. تبغى تشيلني؟».

لأول مرة صرحت صفية بنظرتها الدونية لعبد الفتاح الذي تجمد مكانه. لم يتوقع أن يشعر شعوراً كهذا. كلماتها القاسية كانت الصاعقة التي سقطت فوق رأسه. تلقاها وقاوم السقوط. لكنه أظهر لها أن سلامتها هي الأهم وأنه طيب ويجب أن تذهب معه إلى المستشفى.

الصمت هو الرفيق الثالث بينهما. في بهو المستشفى ينتظران تحليل الدم. جاءت الممرضة البريطانية مبتسمة. congratulations. you are pregnant

هذه المرة كانت الصاعقة من نصيب رأس صفية. فقامت وصرخت: «ما أبغى النونو. أبغى أسقطه. من حقي. أنا هنا في بريطانيا وأقدر».

لم تفهم الممرضة البريطانية العربية ولكنها خمنت أن صفية غير سعيدة بالخبر.

تراجعت الممرضة للوراء وأشار لها عبد الفتاح بأن تتركهما يقرران. رحلت الممرضة. وحاولت صفية أن تلحقها قائلة:

wait...wait

وللمرة الثانية دفعت بيده وخرجت من المستشفى تجري.

لحقها عبد الفتاح وهي تبكي وتمسح الدموع. أوقفها في الشارع قائلاً: «أستني يا صفية.. هذا مو قرارك لوحداك».

اندهشت من جرأة عبد الفتاح وقوة كفه على ذراعيها. وصرامته التي لم تعهد لها أبداً فيه.

تلاحقت أنفاسه وهو يقول: «محتاجين هذا الطفل يمللي علينا حياتنا». لأول مرة تراه جاداً هكذا. ولأول مرة يأخذ معها موقف الزوج الذي له الكلمة الأولى والأخيرة.

لم تستوعب صفية الصدمتين معاً. وعادت كقطعة مسالمة للبيت وهي تمسح دموعها.

يومها فتحت إحدى العلب المخبأة. وتأملت في الشمعة البيضاء المكسورة والتي أهداها إياها الطفل عمران في رحمانى ابن زكية. إنها تذكر يوم الرحمانى جيداً. تذكر كيف وصلت الشموع الملونة في كراتين. وكيف كانت العلب تفتح وتعطى للأطفال والكل يختار لونه المفضل. والبعض يبكي. وكيف أن النساء يخفن الحريق إن أهمل الأطفال الشموع المضيئة. لهب النار ونسائم البخور وماء الورد.

تذكر نفسها جيداً كيف كانت وردة مفتحة. تأملت رسالة نبيل الأخيرة لها للمرة المليون. وهي تستمع لأغنية فيروز:

بعدك على بالي

يا قمر الحلوين

يا زهر الشرين

يا ذهب الغالي

بعدك على بالي

يا حلو يا مغرور

يا حبق ومنتور

على سطح العالي

كيف لفيروز أن تعرف شعور الحب في قلبها. كيف لفيروز أن
تغني نيابة عن كل العشاق المجروحين. نبيل هو الذهب الغالي.

إنه على السطح العالي.. مع الرياحين المنشورة.

وما عرفنا خبر

عنك يا القمر

ولا حدا لولحنا بايدو

وبتطل الليالي وبتروح الليالي

وبعدك على بالي على بالي

كيف لها ألا تخاف أن يطلع عبد الفتاح على هذه الرسالة. لو
عرف بأمرها. فإن بيتها حتماً سيتهدم. شعرت بالضيق. وكأن كل
زاوية في البيت تطبق على أنفاسها. ضربت بيدها على السرير
مراراً وهي تصرخ عالياً دون صوت.

«أنا تعبانة.. تعبانة».

6

صباح أول يوم مدرسي، مسحت مريم على رأس ولدها قائلة
بحنان: «اليوم أول يوم لك في المدرسة يا عبد الله».

أكملت مريم تستشف الشجاعة من المجهول وتقاوم شبح
خوف لا تعرفه: «أبغاك ترفع رأسي. خالك بيوصلك وبعدين أنا
أستناك في مدخل الزقاق اللي وريتك هو أمس تتذكره؟».

هز عبد الله رأسه وبحلق جافاً قال: «والله اشتقت لأبوي. هو
في الجنة دحين».

ردت بحزم تحاول تغيير الموضوع: «انت ولدي وانت رجال البيت.
ونحنا دحين ما بنعيش لوحدنا نحنا بنعيش مع خالك إسماعيل».

رد عليها بنفي بريء: «هذا خالك انتي يا أمي مو خالي أنا».

ردت محاولة أن تطفئ سكير الألم بداخلها: «لا تقول كدة يا
عبد الله. خالك إسماعيل هو اللي رباني لما كنت يتيمة وهو الآن
بيهتم بي وبيك بعد موت أبوك الله يرحمه».

ثم أكملت الوعظ: «يا ولدي إن شاء الله تكبر وترعاني. أبوك ما ترك شي لنا.. بس عمري ما راح أخليك تحتاج أحد».

كانت تتساءل كيف كان أول يوم لولدها، تلهفت ليجيء بعد الظهر فتختبئ عند الزاوية وتلمحه يخرج مع الطلاب يقترب منها ويطأطئ رأسه وكأنه لا يريد لأحد أن يراه مع أمه. قالت له: «شاطر يا عبد الله. كل يوم لا تلتفت لا يمين ولا يسار بتلاقيني أستناك».

تساءل عبد الله الذي كان اليوم الأول له مرهقاً وثقيلاً: «إيش خالي إسماعيل مو هو اللي يجيني من المدرسة؟».

وقالت بحنان: «هو مشغول في دكانه».

مشيا معاً حتى وصلا بيت خالها إسماعيل وقبل أن تدخل توقفت فجأة ثم التفت يميناً ويساراً. لقد شعرت بأن أحداً يراقبها. لكنها طرحت هذه الوسواس عنها ودخلت البيت، واستقبلتها زوجة خالها إسماعيل، كانت تحب مريم كثيراً وتحب ابنها خاصة، مع أنها كانت حزينة عليها فقد ترملت في سن صغيرة وهي السيدة الكاملة في المواصفات سديدة الرأي راجحة العقل.

قالت مريم بعزة نفس: «خالتي ما بتقصروا معاي لكن أنا لازم أدور على وظيفة أو عمل ماني مرتاحة وأنا عالة عليكم».

رفعت زوجة خالها حاجبها استغراباً واستنكاراً: «أستغفر الله يا بنتي إيش هذا الكلام؟ لا تقولي كده إذا أكلنا أكل بتأكلي معانا ولو أكلنا قرص ناشف بنتاقسمه معاكي إنتي وولدك».

إنها شيم أهل جدة الطيبين التكافل وصلة الرحم والمعروف لذوي القربى، جدة التي أحبت الإسلام وطبقته عقيدة وعبادة وشريعة ونظاماً وخلقاً وسلوكاً، الناس فيها مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

لكن مريم لم تكن مرتاحة، صعب على الفتاة إن تزوجت وخرجت من بيت أهلها أن تعود له ثانية، حتى وإن مرت بها ظروف رغم إرادتها. وكلام الناس لا يرحم:

«حرام مسكينة يا رب يرسلها بخت. بس مين يقبل بأرملة يا حسرة؟»

وفي اليوم التالي وللمرة الثانية تبع بكر خطوات مريم وابنها حتى اقترب كثيراً. كانت نظرة خاطفة رأى فيها بكر عيون مريم.

وتظاهر بأنه يشيح عنها بوجهه وأكمل طريقه، بالعكس بالغ في إشاحة وجهه حتى يطمئن أنها بآفه عفيف، فلو شعرت أنه يريد أن ينظر لها لاجتمع أهالي الحارة يدافعون عنها حتى لو لم تكن قريبة

لهم. هكذا كانت شوارع جدة، ملؤها الشرف والعفة. والويل لمن يغازل بنتاً من بناتها. سيهب أبناء الحارة دفاعاً عنها حتى لو كانت غريبة.

أجزاء الثواني كانت كافية بالنسبة لبكر. لقد رأى منها عينين أشبعت جوع عينيه. لقد أخذ عبد الله عيون أمه. الوسع نفسه. والرموش الكثيفة الطويلة نفسها. واللمعان نفسه.

شبت العين ثم جاعت. كم هو مؤلم ذلك الجوع.؟! بكر دائماً يشعر بالجوع. جوع الطعام وجوع أشياء أخرى. الجوع مؤلم. يجعل البشر يتقاتلون ويتحاربون صراعاً من أجل البقاء.

لا راحة إلا إذا أشبع الإنسان جوعه. ما هذه المشاعر التي يشعر بها بكر لأول مرة؟! أهو غضب أم فرح أم خوف من أخيه صادق..؟! أياً كان. كلها تؤدي إلى تثبيط الإحساس بالجوع.

وجد بكر نفسه في حي العمارية، أمام كشك بيع شطائر الكبد فأتخذ زاوية وجلس يأكل. قضم لقمتين وشبع. نظر بكر إلى الشطيرة. وقرر في نفسه أنه يريد شيئاً آخر.

قام وترك الشطيرة مكانها، فجاء أحد صبيان الحارة بشيابه الرثة والتقطها وبدأ في أكلها.



عاد الشيخ إسماعيل حزيناً لمنزله، فقالت له زوجته بحب العشرة الزوجية الطويلة: «ربنا يرزقك ويعوضك عن المركب الشراعي الذي غرق لا تزعل يا إسماعيل يا جوزي».

خرجت الكلمات من بين شفثيه بحسرة: «الله كريم».

دخلت مريم تعد العشاء وتقبل يد خالها بكل أدب وحشمة.

ولما انشغلت زوجة خالها في المطبخ اقتربت من خالها وقالت له: «خالي عندي بناجر ذهب من أيام دبشي⁽¹⁾ أبغى أبيعها. الله يخليك بيعها لي».

(1) الدبش: هو جهاز العروس.

رد عليها معاتباً: «يا بنتي أنا مقصر معاكي؟ تبغي فلوس خذي. أعطيكى. إنت بحسبة بنتي».

ردت تحاول أن تمتص عصبيته: «يا خالي. والله حاسة إني مثقلة عليكم. صرفت علي زمان قد إيش ودحين جيتكم البيت وبولد كمان. الله يسعدك يا خالي. بيع الذهب هذا وخلي الفلوس عندي. فجأة يحتاج عبد الله لفلوس ولا شيء ما أطفشك كل شوية».

بعد محاولت ورجاء رضح خالها وأخذ البنجرتين من الذهب ووضعهما في جيب ثوبه: «بكرة أنا أبيعلك الصيغة وخللي الفلوس في جيبك بس عشان ترتاحي. لكن لا تصرفي منها، أي شي تبغيه قوليلي».

ردت بتوقير واحترام كبيرين: «حاضر. حاضر يا خالي. الله يطول في عمرك ويعوضك عن المركب اللي غرق».

«آمين.. آمين».

أعجب الخال إسماعيل بكفاح ابنة أخته ورصانة عقلها وإبائها. فلم يرفض لها طلبها. دخلت زوجته بشاشة وساعدته في أن يتمدد وقامت بتمسيد رجله وساقه كي يرتاح ويغفو قليلاً قبل أن يذهب مرة أخرى للكان. هذه الزوجة التي ورثت من أمها احترام الزوج وتكريمه. فخدمة الزوج عزة وليست مذلة.

أما هو فقد أغمض عينيه يفكر في العامل البنغالي.. وألم ضميره يأكله.

قال صادق وهو يأكل سمبوسة بشغف واستطعام: «الله الله يا أمي. أحلى سمبوسة في جدة كلها والله اشتقت لطبخك يا ست الحبايب، ولو زوجتي طبختلي من اليوم لبكرة. ما يسوة قضمة من أكلك يا أمي».

ردت بحزن وشكوى: «واحشني يا ولدي. أوقات طويلة البيت فاضي. أفتقدتك. سنة من عمري برغم أشوفك كل يوم تمر علي وتسال عن أحوالي إلا إني أحس إنك بعيد. وبزورتك اللي ربيتهم بيدي.. يجوا مع إنهم يسلموا علي إلا إني أفتقدكم».

انتهى صادق من أكلته ومسح فمه.

«الحمد لله».

وأردف بملاحة: «يا أمي إنتي قد إيش بكيتي تبغي بكر يرجع، أهو اتصالح معاه كلو عشان خاطرك».

ردت برجاء: «يا ولدي سامح أخوك. الله ربنا فوق يسامح إذا أذنب العبد».

رد بعصبية: «طيب أنا مو ربنا يا أمي أنا بشر».

قالت تستعطفه: «الناس كمان سامحته».

رد مقاطعاً بانفعال: «لا يا أمي. الناس ما سامحته. شوفي كم جارة وكم صاحبة ليكي بطلت تزورك من يوم جا بكر سكن عندك. شوفي كم واحد سحب نفسه وسحب بزورته من هنا. لا

أروح بعيد هذا جارنا عنده ثمنية أولاد شالهم كلهم ونقل من هنا حارة البحر وراح حارة الشام. كيف تقولي سامحوه الناس؟».

مرت لحظات هدوء ثم أكمل: «أنا كمان ما أسامحه. هذا اللي جابلنا العار. سعيد نقلته من المدرسة اللي بكر يروح فيها وبرضو أصحابه الجدد واحد فيهم قال له عمك هذا».

قاطعته الأم وهي تبكي وتضع أصابعها على شفاه ابنها: «خلاص لا تكمل. أخوك تاب من زمان وربنا تاب عليه». وسالت الدموع وصارت تمسحها بمنديل شعرها.

شعر صادق بالحزن وقال: «خلاص يا أمي حقك علي. ما أبغى أمشي من هنا وإنت زعلانة وهذي بوسة على رأسك».



رجع بكر للبيت ووصل قبل المعتاد وعرف أن أخاه صادق معر أمه فوق، فذهب يجوب الزقاق ينتظره حتى ير حل من البيت، إنه نفس الموعد الذي يأتي فيه صادق ليرى أمه التي عاش معها سنيًا.

نظر لبيت مقابل على بعد أمتار كانت تسكن فيه زوجته وأولاده، انتقل لأنه لا يريد أن يعيش بكر معهم، يخاف على أولاده منه.

شعر بكر بالخزي عندما تذكر نظرات أخيه له أمام العمدة الذي صالح الأخوين بعد أكثر من عشر سنوات فرقة. نظرة ملؤها الحقد. ليعترف بكر في داخله أنه يخاف. يخاف كثيراً من صادق، يخافه إن تحرك فجأة. يخافه إن جهر صوته. يهابه في جميع أحواله، ولا

يواجهه، مرت عدة شهور وهو يتحاشاه، ويتحاشى الحديث عنه أو سماع حتى اسمه، أمه تشتاق إلى ولدها ولكن اشتياقها لابنها الغائب سنيناً كبير أيضاً، وكانت تتمنى في قلبها أن يصلح حال ولدها وتكون سبباً في هدايته. كانت تعيش الصراع دائماً وتشكي أن لها فقط ابنين وهما على خلاف مزمن.

كان يذهب يمنية ويسرة في حالة من التوتر والقلق. حتى رأى من بعيد ابن أخيه سعيد وقد جاء من المدرسة. أول مرة يراه وعرف أنه ابن أخيه، ليس فقط لأنه دخل باب منزل أبيه، بل لأنه يشبه صادق كثيراً، كما يشبه جدته أيضاً. سمع صوت الأم من خلف الباب: «هلا سعيد كيف المدرسة اليوم؟».

رد سعيد مع قفل الباب: «الحمد لله يا أمي».

وسمع صوت فتاة صغيرة تنادي من الأعلى: «جبتلي حلاوة يا أخوي؟».

توقف بكر وشعر أنه غريب. وأنه ليس طبيعياً. سلوكه منافٍ للفترة السليمة. فما شاهده من أسرة سعيدة هو حلم لكل شاب. أن يبنى أسرة ويكون له زوجة وأطفال.

شعر بكر أن هذه السعادة التي ربما لم يكن يعيشها هي التي يبحث عنها.

لأول مرة شعر بالغربة والوحدة والدنيا التي يعيشها في خيالاته والتي أخرجته عن الأوصاف الطبيعية، وفيما هو غارق في تأملاته سمع صوت صادق المخيف: «إيش بتسوي هنا؟»

انتفض رعباً وطأطأ رأسه ثم هرولاً صاعداً لأعلى مثل جرد خائف. دخل البيت دون السلام على أمه بل أسرع إلى غرفته وأغلق الباب خلفه. ودقات قلبه تتسارع خوفاً من أخيه الأصغر.

أخوه ذو الشخصية القوية راض عن نفسه ومرتزن. أما هو فهزيل ولا يمت للوسامة بشيء. قليل الحيلة.. قال لنفسه: «أنا ضعيف.. ضعيف».

اختلط ظلام دنياه وظلام عقله فشعر بالخجل من نفسه واعترف برعبه من صادق. لماذا لا يواجهه؟! لماذا لا يرفع صوته أمامه..؟! لماذا يرهبه..؟! أسئلة لم تزد بكر إلا حسرة. تذكر مصيبته الأخرى.

شعر بالعار. بالخزي والدونية ونفور الناس منه. وسوء سمعته في الحارة. رحل بكر عن الحارة فترة طويلة

وعندما عاد إلى جدة لم تشفع له السنين وتمحو ذكراه السيئة من عيون وذاكرة الناس.

استلقى بكر على سريره يفكر. لا يستطيع أن يلوم أحداً على شذوذه، لم يكن لأحد يد في انتكاسته.

ولا حتى أن يلوم نفسه. لكنه حاول منذ أن عاش في الطائف وحيداً أن يتخلص من هذا الانحراف. كانت الطائف بالنسبة له منفى. مجرم نفاه المجتمع. لذلك أراد لنفسه الإصلاح. حاول كبح جماح غرائزه. حاول أن يصوم كثيراً حتى هزل وفقد وزنه.

وصار أقل من الوزن الصحي..

لم يفتقد الوزن فقط. لكنه فقد كرامته. كبريائه. رجولة لم

يجربها أبداً. ذكورية مهدرة في مكان خاطئ. إنها فقط عدة هفوات قديمة مع بعض أطفال الحارة. لكن المجتمع لا يرحم. قاس جداً.

لا يعرف إذا كان هو المجرم أم الضحية. ضحية لشيء لا يعرفه ولا يفهمه. لم يتعاطف معه في العالم سوى أمه. هذه هي الأم التي تسامح ولدها مهما كان وتراه كاملاً مهما انتقص.

لم يكن يعرف أين يذهب ليعالج نفسه، فلا مستشفى يمكن أن يستقبله ولا شخص يمكن أن يتعاطف معه ليصل إلى وضع سليم نفسياً وجسدياً.

إن ما فعله في الماضي أمر لا يغتفر. ما السبيل الآن؟ هل سيعود للطائف؟ نعم ربما كانت هذه فكرة صائبة على الأقل هنالك تقبله المجتمع وفي نظر بعضهم هو إنسان محترم. التخفي عن مجتمع الفضيلة أرحم.

الرحيل هو الحل بدل الوقوع في الهاوية.

صراع القهر والبقاء. المواجهة أم الهرب.

تذكر عيون مريم. فدق قلبه. وتعجب أنها المرة الأولى التي يدق قلبه لامرأة. إنه شيء غريب. مريم التي لم يرها هي أول امرأة أثرت في قلبه.

استبشر بكر في نفسه خيراً. فهذا دليل العودة للفطرة السليمة.

فرح كثيراً.

«.. أفدي عيونها. بس مين هي؟»

* * *

في اليوم التالي وعند الصرفة⁽¹⁾ سبق بكر عبد الله وأمه في الوصول لمنزله. وسأل الجيران عن عبد الله. لم يتعرف عليه أحد كونه انتقل جديداً للحى ولكنهم أخبروه أن المنزل الذي يشير إليه تسكن فيه أربع عوائل على الأقل اثنتان في كل طابق. فأخذ أسماء العوائل كلها وصار يبحث ويجول ويستفسر عنهم حتى توصل إلى العم إسماعيل.

ذهب بكر لشارع قابل وسأل عن العم إسماعيل وسط خوفه أن يظهر لأخيه صادق الذي يبيع الأقمشة هناك. حتى رأى العم إسماعيل من بعيد، يبيع دخناً وشعيراً، صحيح أن العم إسماعيل

طيب وتظهر عليه علامات الوقار لكن تلك السيدة وعبد الله لا يشبهانه. استفسر من بعض الناس هنا وهناك خفية، حتى عرف حكاية مريم، حيث أنه مؤخراً يهتم بها وبولدها بعد انتقالهم من مكة بسبب ترميلها.

عاد بكر من جولته إلى المنزل، ليس من الصعب أبداً الحصول على أخبار الناس. فالتناس قليلون يعرفون بعضهم البعض، وفي الفصل كعادته سرح كثيراً خلال الدرس. يفكر بالاسم «مريم»

(1) الصرفة: هو موعد انصراف طلبة المدارس.

«مريم» تخيلها زوجة له. وعبدالله هذا الطفل الجميل الرائع سيربيه. إذن مريم أرملة. سيرزق بالأطفال منها وسيعود للمنزل كما يعود صادق لبيته وسيناديها وترد عليه. وتترين له.

عندها كتب مسألة على السبورة وقال بصوت حازم للأطفال: «اليوم كل واحد فيكم يطلب من أهله يساعده في حل المسألة في دفتره».

فقال أحد الطلاب: «ممكن أبوي؟».

فرد بكر: «إيوة. وإن يا ولد مين راح يساعدك؟».

سأل الأطفال جميعهم. وجعل عبد الله آخر واحد فسأله:

«عبد الله مين ييساعدك في حل المسألة؟».

رد بصوت خافت: «أمي».

ضحك أحد الطلاب فصرخ بكر: «إيشبكم تتريقوا⁽¹⁾. إيش

فيها لو ساعدته أمه؟».

لأول مرة كان يدافع عن «مريم».

آه يا مريم. لا بد أنك ساحرة وفاتنة!

وزع دفاتر جديدة للطلاب.

«بكرة تجيبوا حل المسألة».

(1) التريقة: هي السخرية.

في اليوم التالي جمع بكر الدفاتر. ووضعها على طاولته.
وكان يريد للوقت أن يمر بسرعة، حتى دق جرس الفسحة،
وذهب الطلاب إلى الساحة ليأكلوا شطائرهم أو يشتروا الحلوى
والأطعمة من مقصف المدرسة.

جلس بهدوء يبحث بين دفاتر الطلاب وسحب دفتر عبد الله
وبهدوء شديد فتحه. وقربه حتى لامست فتحات أنفه الدفاتر.

كان يشم ويشم. وكأنه يتوسل حاسة الشم التي يملكها كثيره
وتلتقط ما تنوق إليه نفسه. كأنه يرتجي قطرة ماء تعيد له الحياة.

كأنه ينادي من الهاوية مَنْ في الأعلى بأن ينقذوا حياته. حتى
جاءه الفرج.. عندما انتبه إلى عطر خفيف جداً تسلل إلى قلبه
فحركه مرة أخرى. إنه ليس عطراً. لكنها رائحة أشبه بالريحان.
جعلت بكر يشعر أنه في جنة. رقص فيها سُكراً من الفرحه، هذا
لابد وأنه من يد مريم.

صحح جميع الدفاتر بالقلم الأحمر وكتب على دفتر عبد الله
«المدرسة معجبة بحسن اهتمامكم بابتكم».

وصل اليوم الدراسي إلى نهايته، فوضع عبدالله كتبه براءة في
حقيقته وهم بالخروج. فتبعه بكر. وقبل أن يصل عبد الله لأمه في
الزاوية بعدة أمتار. ناداه بكر قائلاً: «عبد الله. عبد الله.. نسيت دفترك».

اندست الأم خلف الزاوية ورأت من برقعها الأستاذ وهو يلحق
بعبد الله ويعطيه الدفتر. عندها رفع نظره ووقعت عيناه على عينيها.

دق قلبها خوفاً فانسلت وابتعدت كمن مسه ماس كهربائي.

قال عبد الله: «مع السلامة يا أستاذ».

وصل لأمه في الزاوية فأمسكت بيده ومشت بسرعة غير عادية وكأنها تهرب. مشت بسرعة حتى قال لها عبد الله: «أمي ترى بتعوري يدي».

لم تسمعه وأكلمت طريقها بسرعة حتى وصلت الباب وهي ترجف ودخلت المنزل وتناولت كوباً من الماء لأنها عطشت كثيراً. ثم هدأت أنفاسها.. كانت ترتجف. إنها تعرف جيداً تلك النظرة. إنها نظرة غير سليمة من رجل لامرأة. إنها نظرة معاكسة. وهي أذكي بكثير. فإذا كان يريد أن يجذب انتباهها فقد فعل بقوة. تذكرت وجهه. إنه هو ذلك الذي تبعها لبيتها قبل ذلك وتلاقت نظراتهما وأشاح بوجهه. كأن سهام نظراته القاتلة أصابتها الآن فخافت أكثر. إنه نفس الرجل. إذاً لم تكن صدفة

بل كان يقصدها. كانت أصابعها ترتعد وترتجف بقوة.

نادت ولدها: «عبد الله مين هذاك الأستاذ؟ أستاذ بكر؟».

رد بعفوية: «إيوة هو أستاذ بكر. ليش؟».

لم تعرف ماذا تفعل.

بعد عصر ذلك اليوم وفيما هي تذاكر لعبد الله وزوجة خالها تقرأ القرآن بالقرب من الروشان لتلتقط ضوء الشمس قبل المغيب

فتحت الدفتر ووجدت التصحيح بالأحمر وجملة: «المدرسة معجبة بحسن اهتمامكم بابتكم».

كثير عليها في يوم واحد أن تعرف نية ذلك الرجل السيئة. إنها واضحة جلية.

ألا يكفي أن تشعر أن حياتها من بعد زوجها كلها عِدَّة وليست أربعة أشهر وعشرة أيام. والآن من أين طلع لها هذا الخيـث؟

لقد كانت تسبح في بحر من الأفكار السوداء حتى جاء العم إسماعيل مبتسماً ذلك اليوم. وقال بعد العشاء: «يا بنتي أتقدم لك واحد اليوم طلبك مني».



دارت الدنيا في عقلها. فلم تخجل كثيراً كونها ليست فتاة تتزوج أول مرة. تقبلت الموضوع بعقلانية وجدية فأردف العم إسماعيل: «عم عبد الله. إيوة أخوز زوجك الله يرحمه. أخوه الصغير فهد».

فردت مريم متعجبة: «لكن فهد أصغر مني بسنة، كيف يصير؟»

قال العم إسماعيل: «والله يا بنتي أبوهم جاني اليوم وجلسنا سوى وقال إنو فهد قرر يتزوجك لأن العيلة مشتاقين لعبد الله وفي نفس الوقت خايفين عليكي فقالوا فهد لمريم».

ردت معارضة: «يا خالي هذا صار زواج شفقة، والحمد لله ماني بعازة شفقة أحد».

لم تتدخل زوجة الخال لأنها لا تريد أن تشعر مريم بالإحراج بسبب وجودها معهم، فربما جرحت كرامتها لو أدلت بأي رأي؛ لذلك آثرت الصمت بجملة: «الله يختار الطيب».

رد العم إسماعيل: «والله أنا قلت للجماعة فهد صغير ويمكن ما يقدر يتحمل مسؤولية وبعدين عبد الله ماشاء الله عليه خلاص بيكبر. الجماعة أصروا».

دخلت غرفتها وهي تقول: «فهد !!؟؟»

ثم ضحكت. فجاء عبد الله وقال: «أمي. إيش بيقول خالي إسماعيل عن عمي فهد؟».

ضحكت مريم بتوتر حتى نامت.



في اليوم التالي صلت الفجر وجلست تحفظ ابنها القرآن وهي تقول في نفسها: «الله يسعدهم أهل جوزي الله يرحمه قد كدة حزنانين علي !!»

صحيح الدنيا غريبة. في الوقت الذي ينظر فيه الناس لها على أنها أرملة ومسكينة، يخطبها أخو زوجها ليحميها. ولكن ما ذنب العريس أن يتزوج زوجة أخيه التي تكبره بسنة؟

وهي تجهز ولدها للمدرسة ليصطحبه خالها ويوصله للمدرسة في طريقه، قالت: «خالي من دحين أقولك جوابي عشان لا نتعب

الجماعة ينزلوا من مكة لجدة. أنا ما راح أتجوز فهد أبداً وهو من طيبه وأصله بيطلبني لكن ما راح أقبل أبداً. بلغ عمي سلامي وقول له فهد أخوي الصغير».

هز الخال رأسه موافقاً رأيها واصطحب الولد ومضى.

كان بكر مبكراً في الحضور للمدرسة ذلك اليوم، رأى العم إسماعيل قادماً مع عبد الله من بعيد، فعدل ياقة ثوبه واقترب وسلم.

فقال عبد الله: «خالي. هذا أستاذ بكر».

تصافح الاثنان وأثنى بكر على أخلاق عبد الله، فقال العم إسماعيل: «أنا أصير خال أمه. أبوه مات قبل فترة يا ولدي بالله أنتبه له».

فرد بكر: «ولا يهملك يا عم».

أراد العم أن يهيم بالذهاب إلا أنه توقف فجأة وقال بصوت بطيء وكأنه يفكر: «إنت مو بكر أخو صادق؟ مو إنت أخوه الكبير اللي كنت تعيش في الطائف؟»

وقتها تكهرب بكر، تظاهر بأنه لم يسمعه ومشى نحو المدرسة.

أما العم إسماعيل فقطب جبينه.

عاد بكر مع عبد الله للفصل. جمع الدفاتر مرة أخرى وبسرعة فتح دفتر عبد الله فلم يجد شيئاً. إنها لا ترد. لكنه على يقين أنها شعرت به وبنيته. وكرر ما فعل بالأمس لحق عبد الله وسط جموع المنصرفين وقبل أن يصل بأمطار قال بصوت عالٍ قد تسمعه مريم عند الزاوية: «عبد الله. يا عبد الله. خذ هذي».

التفت عبد الله وابتهج فقد كانت مجلة فيها رسومات أطفال. وقال بكر بصوت عالٍ:

«حييتها؟؟ أنا كمان حييتها. المجلة هذي مرة حلوة».

نادت مريم ولدها: «يالله يا عبد الله. يالله أخلص تعال».

رد بكر بوقاحة: «ليه يا عبد الله. بدري».

لكن مريم أمسكت ولدها بعصية وصارت تمشي أسرع من الأمس وقلبها يدق كأنها تتسابق مع المحن ومع ظروف حياتها الجديدة التي وضعتها في هذا المأزق. حتماً. حتماً. ستخبر خالها إسماعيل.

وصلت البيت وخلعت عباءتها وصارت تبكي مثل طفلة صغيرة. جاء عبد الله يربت على شعرها بحنان: «أمي. إيش بك؟»
بكت بكاء حاراً وهي تحضنه: «ولا شي. ولا شيء. بس افتقدت أبوك».

واستمرت تبكي. فقال عبد الله:

«لا تبكي يا أمي أنا بكر أصير رجال. وراح أشتري بيت كبير وأسكنك فيه بيت لو حدنا لا تبكي».

حضنته مريم وبكت. وحلقت فوق رأسها طيور الأسى.



عن بعد كان هنالك شاب أفريقي يراقب بتوجس باب الصايغ في شارع قابل. ورأى العم إسماعيل دخل محله ثم اختفى عن الأنظار.

دخل العم إسماعيل محل الصيغة لأنه أراد أن يبيع بناجر ابنة أخته.

أتم البيع ثم خرج من محل الصيغة وهو يعد ورقات المال. مالم يعرفه العم أسمايل أن من كان يراقبه هو حمزة، صبي أبو ياسين.

وصل عم إسماعيل بيته وسمعت مريم خطواته وأنفاسه فدخل بيته بالخير والبركة وبهدوء أعطاها في يدها مبلغاً من المال وقال:

«هذي حق الصيغة بعثها لكي اليوم».

وأكمل: «يا بنتي لا تصرفيها الله يرضى عليك. وانا بأصرف عليكم من خير ربنا».

ثم تمدد كعادته وجاءت زوجته تدلك أطرافه.

نزل عبد الله يلعب مع أطفال الحارة الذين تعرّف عليهم حديثاً، وفيما كانت مريم تحيك وتصلح بعض الشقوق في ثياب ولدها، كانت تفكر. ترددت مريم كثيراً في أن تخبر خالها، لم تكن تعرف رد فعل خالها حتى لو كان هو الذي رباها، العيب عيب في مجتمع

مثل جدة، العيب أشد وطأة من الحرام، وثروة الإنسان هي سمعته، بالذات عندما يتعلق الأمر بامرأة. وما يجعل مريم حزينة ويزيدها همًّا هو عدم وجود مصدر دخل لها، فزوجها الذي مات لم يترك شيئاً كثيراً وربما هذا ما جعل أهل زوجها يشعرون بالذنب تجاه الأرملة الشابة.

فكرت مريم مراراً في أن تفتح الموضوع، ماذا لو صرخ خالها في وجهها؟ ماذا لو ذهبت وافتعلت عراكاً كبيراً مع المدرس دفاعاً عن سمعة بيته سيعرف الناس جميعاً. وقتها لن يرحموها.

أمواج ما بين جرأة وخوف. تتقدم خطوة وتعود خطوتين عن خالها وزوجته. إنه شعور بالعجز. وربما ارتجاف أطرافها وبرودتها. لكنها غرقت في بحر جديد من التفكير وهو: «ماذا يريد منها هذا الأستاذ؟».

هل يريد بها بالحلال؟ أم هل يريد بها بالحرام؟ أم أنه يريد منها مالا؟ أم ماذا؟

ماذا يمكن لبكر أن يريد منها؟

هل أحبها؟

انتفض قلبها خوفاً. بكر لا يقارن بزوجها المتوفى. فكرت ماذا لو أنها سألته مباشرة عما يريد؟

لربما اتضحت الأمور أكثر.

من هو بكر؟

من هو بكر؟

كانت تستमित في البحث عن درب يوصلها إلى مجاهل ذلك الشاب ونواياه. لكنها يئست فحملت نفسها وجاءت بكل شجاعة وقالت لخالها: «خالي معلش راح أتعبك معاي.. ممكن ترجع عبد الله كل يوم من المدرسة؟».



اختفت مريم ولم تعد تحضر خلف الزاوية.. وأصبح عبد الله ينتظر تحت الظل حتى يأتي العم إسماعيل الذي يصطحبه كل يوم إلى البيت.

جُن جنون بكر. وانفعل وضرب بيده على الحقيبة الجلدية. شعر بأن ثوبه ضيق كالجحيم. وياقة ثوبه تخنقه. يفرك شاربه مع أنه أمرد بلا شعر.

لا توجد أي طريقة كي يصل إليها. فهي لا تتفاعل مع الجمل الرسمية التي يكتبها على دفاتر عبد الله، ولا يوجد خط هاتف يمكن أن يتحدث إليها به. ليس لديه أخت أو قريبة يرسلها إليها.

لم يكن أمامه سوى عبد الله. إنه يتحاشى نظرات العم إسماعيل. لأنه شك فيه. كان يختبئ كل عصر على طرف الزاوية يراقب روشن منزلهم. ويتحاشى أن يظهر أمام عبد الله. الذي لمحّه في يوم فجاء له وقال: «أستاذ بكر إنت هنا؟».

انسل هارباً من أمامه، فصعد الطفل وقال لأمه: «شفت أستاذ بكر هناك على الزاوية».

ازدادت مريم خوفاً. إنها تعرف تماماً أنها قطعتة بل وحاصرته كقط ثائر في الزاوية. فماذا عساه يفعل؟. لا تستطيع تخمين رد فعله تجاه هذا الحصار النفسي.

حتى وصل بكر عنق الزجاجة فاستسلم. فدخل على أمه:

«أمي. أخطيبي».

وقتها ارتفعت الزغردة في بيت أم بكر. وبرغم معرفة الأخيرة بظروف المرشحة للزواج وكونها أرملة ولديها طفل إلا أنها لم تعترض. كون هذه خطوة سباقة من ولدها تتمناها منذ سنين.

7

لم يستطع حمزة أن يخفي ارتبأكه أمام أبي ياسين الذي قال له:
«إنت مريض يا ولد؟».

رد بخوف: «لا. لا عمي مو مريض».

وتزاحمت شياطين الأسئلة كان أقواها ليس: «كم من الذهب
خلف الجدار؟» ولكن كان: «ليش ما قلت لعم أبو ياسين على
الذهب؟».

لماذا لم يخبر حمزة عمه الطيب الذي رباه. وآواه. وعامله
كابنه ولم يقصر معه يوماً ما. هذا العم الذي جعل شياطين الأسئلة
يهربون عن رأس حمزة بقوله:

«حمزة. ناوي أجوز ياسين وكمان أجوزك كل كلفة جوازكم
علي».

رد بسخرية على نفسه: «عمي كيف أتجوز وأنا ما عندي بطاقة».

وقتها ذهل العم أبو ياسين لم يكن يتخيل أن حمزة الطفل كبر وصار يعرف ظروفه، لكنه طمأنه بقوله: «أبغى أكلم لك واحد من أصحابي عشان أقدملك معاملة يا ولدي الحكومة بإذن الله تعطيك». وقتها ارتبك حمزة وكاد يسقط علبة المخمل من يده.

«عمي أبغى ارتاح اليوم».

سمح له أبو ياسين بالخروج فذهب بعيداً يمشي بين الأزقة. حتى وصل إلى مكان يستطيع أن ينفرد فيه بنفسه. تأمل القطعة الذهبية وبدأ بالتخطيط.

تأمل القطعة جيداً وهو يقول داخل نفسه:

«أعرف إنك مو لوحدك».

ثم مسحها بأصابعه المتسخة، فزاد لمعانها. وقال بصوت خافت:

«راح أبيع كل الذهب. وأعلم الناس أنا مين».

عاد مرة أخرى ثم نظر من بعيد إلى دكان الصايغ المعروف في شارع قابل. تأمله كثيراً ورأى العم إسماعيل يدخله وفي يده بناجر ذهب. وعرف أنه يريد أن يبيع تلك الصيغة.

لكنه فكر وقال في نفسه: «لكن كيف أبيع الجنيهات هذي راح يكشفوني».

غادر وصرف النظر عن صايغ شارع قابل.. وبحث في خرابة

قريبة عن مكان يختلي فيه بنفسه ليفكر. كيف له أن يبيع دون أن يتنبه له أحد. أو يشك فيه أحد؟!

جلس على تلك الصخرة وحيداً طوال اليوم حتى غابت شمس مدينة جدة وبدأ الظلام ينتشر في كل مكان.

* * *

في اليوم التالي رأى حمزة العم فريد ومساعدته يحملان بعض الأقمشة فقال له: «أساعدك عمي فريد؟».

ساعده في تحميل بعض الأقمشة سائلاً إياه: «فين رايح؟».

رد العم فريد «لازم أنزل مكة عشان أودي هذي الأقمشة، جاتني طلبية كثيرة من مكة بالجملة، رايحين أنا والصبي».

إلا أن حمزة قال بمكر: «عمي خلي الصبي حقل يفتح دكانك أنا أجي مكة معاك. أنا أساعدك».

كانت فكرة ممتازة جداً ولكن العم فريد خاف أن يأخذ حمزة من عمه، فطمأنه وبدلالة الوثوق قال حمزة: «لو طلبت عمي أبو ياسين ما راح يقولك لا».

ذهب العم فريد مع حمزة لدكان المخللات والزيتون وطلب من أبي ياسين أن يرافقه حمزة في سفره لمكة، فوافق العم أبو ياسين دون سؤال بل بالعكس رفع صوته بأسلوب تربوي قائلاً:

«يا حمزة اخدم عمك فريد مزبوط».

ومشت سيارة ونيت وكان هو بالخلف. من المطبات الكثيرة إلى الإسفلت وطريق طويل. حتى وصلت السيارة الوנית لمكة التي يذكرها حمزة وهو صغير، أكمل حمزة مساعدته لعمه فريد في إنزال الأقمشة حتى تركه قليلاً وهو يتفاهم مع التجار على عدد الطاقات والأقمشة، انسل بخفة ثم مشى بسرعة بين الأزقة وهو يسأل عن سوق الليل حتى وصل أمام مجموعة دكاكين الصاغة.

كان حمزة ذكياً فلم يدخل أي محل، بل أخذ يبحث ويبحث كراً وفتحاً عن دكان مُنزوٍ. كان يبحث عن يبيع. وعن كمية الشر على وجهه، فهو لا يريد بائعاً أميناً. بالعكس إنه يبحث عن بائع شرير يشتري منه جنيهاً الذهب. حتى وجد محلاً مُنزوياً على حافة زقاق ضيق راقب فيه البائع العصبي الذي يصرخ على الصبي ويشتكى ضيق الرزق فقال في نفسه: «هذا ينفع».



دخل المحل فنظر له البائع باشمئزاز وقال: «يعني بتقول لي دحين إنك تبغى تشتري ذهب؟».

وضحك حتى ضحك مساعده. فرد حمزة بثقة: «إنت تبغى تشتري مني؟».

فزاد ضحك البائع. فقال حمزة بجدية: «قول للصبي يطلع برة الدكان أبغى أكلّمك كلمة رأس».

تعجب البائع من جديته وبالفعل أطاع حمزة وصرف المساعد

حتى جاء حمزة عند الزجاج الذي يعرض فيه الصيغة ووضع شيئاً بيده. فصدر صوت كاد أن يكسر الزجاج ثم أزاح يده وقال «إيش رأيك في هذي؟».

أحضر البائع عدسة مكبرة. ثم وضع شيئاً على عينيه وملامح وجهه لا تعبر عن شيء حتى أنزل من عينيه وقال «هذا ذهب ماله معنى. ما أعطيك عليه كثير».

فرد حمزة: «يعني كم؟».

قال البائع: «يعني والله إيش أقول أنا راح أخذ أذوبه وأرسله للصايغين يصيغوه».

رد حمزة وهو يسحب الجنيه ويمشي: «طيب في غيرك كثير يشتروا».

حتى وصل باب الدكان فرد الصايغ يوقفه: «أستنى يا ولد. كم تبغى فيه؟».

ابتسم حمزة والتفت وقال: «ترى أنا ما بأبيعك ذهب وبس. أنا بأبيعك عملة وإنّ تعرف هذا الشيء».

وأكمل حمزة وقال: «ترى أنا اخترتك من بين كل التجار عارف ليش؟».

رد عليه الصايغ: «عارف».

أكمل المفاوضة بمكر: «تغطي علي. أغطي عليك. تعطيني أعطيك. حط إيدك بإيدي نكسب سوا».

وأكمل الصايغ: «كلام سليم، في ناس كثير تحب تشتري هذي الأشياء بس إنت ما تقدر تبيعهم. وأنا أقدر».

رد حمزة بخبث: «تمام عليك. إنت تقدر. وأنا أقدر أجيبك زيتها كثير. تبيع وتأخذ عمولتك. وتوسع محللك شوف محللك زي الزبالة بين أصحابك».

تغيرت لهجة الصايغ: «كم معاك منها؟».

اقترب حمزة وقال مكملًا الصفقة: «قولي لي أول شي إيش العملة هذي؟».

التقطها الصائغ مرة ثانية وقال بهدوء وهو يتأملها: «هذي عمرها أقل شي 300 سنة، ومضروبة في بغداد».

رد حمزة: «كم تبغى نسبة؟».

بعد تفكير قال البائع «خمسين خمسين».

ضحك حمزة وقال: «سبعين ثلاثين».

رد الصايغ: «أربعين ستين».

لكن حمزة قال وهو يعتصر الكلمات: «سبعين ثلاثين وبتسلم على إيدي كمان. مكرمك زيادة».

سكت الصائغ وقال: «إذا كان مستوى باقي الجنيهاات اللي عندك زي هذي».

رد حمزة وكأنه تحول في يوم وليلة إلى رئيس عصابة:
«تعجبك. تعجبك».

لم يطل الوقت لكي يتم الاتفاق وختم حمزة مهدداً: «أنا راح
أسيبها عندك. وراح أجيك بعدين. بيع هذي وقول كيف مشي
معاك الموضوع. ولو أنكرتني ولا قلت لأحد ما يصير لك طيب.
صح أنا طيب. بس لا تثق في لما مخي يتكرن».

خرج حمزة من محل الصيغة ومشى بين الأزقة حتى وصل إلى
العم فريد الذي كان ينتظره. فقال عندما وقعت عيناه عليه:

«فينك يا حمزة أتأخرنا على جدة قوامن قبل الشمس ما تغرب».

ركب حمزة السيارة مرة أخرى. وبرغم أن العم فريد دعاه أن
يجلس بجواره في المقدمة إلا أن حمزة رفض وجلس في الخلف
تحت السماء وقال مازحاً: «أنا والليل لوننا زي بعض».

فرد عليه العم فريد: «يا ولدي إيش الكلام هذا. ما تبرد؟»

«لا عمي. الجو حلو».

ضحك حمزة. وتمدد على ظهره. وهو ينظر للسماء التي يزيح
الظلام منها ما بقي من ألوان المغيب والشفق.

الغريب في الموضوع. أن شياطين الأسئلة اختفت للأبد منذ
ذلك اليوم.

وعاد ينتظر خروج أهل البيت ليحفر مرة أخرى. كان خائفاً
فإذا وقع كسر في أي مكان بالبيت يسهل علاجه إلا منطقة الفحل
فالأمر سيصبح خطيراً وقد يهدد البيت بالانهيار.

استغرق الأمر عشرة أيام حتى يتم الكسر بصورة احترافية
ويتنشل صرة كانت ملفوفة بإسفنج، فتح الصرة الثقيلة وإذا بها
جنيهاً مختلفة ألوانها وأشكالها. أحضر طيناً وغطى فتحة فحل
الدرج، لقد كان واضحاً لون الطين الجديد على القديم. لذلك
سحب المساند القديمة، والأثاث القديم وغطى الزاوية، ثم ذهب
إلى غرفته وأخذ في بقشة ما يمكن أخذه، وفيما هو يهيم بالخروج،
وقف قليلاً ثم جاء بسكين حاد وكس، صعد عليه وأمسك سلك
اللمبة الصفراء وقطعها، أخذ معه اللبة الصفراء. وخرج يهرول.
وهو يتذكر ما قاله لصديقه صبي العم عثمان. قال له أن يذهب
مباشرة إلى شارع قابل ويوصل لعمه رسالة مفادها الآتي: «عمي
أبو ياسين. شكراً على كل تعبك. جا الوقت اللي أقول لك فيه إني
رايح أبني مستقبلي. أنا راح أبدأ تجارة في الحج.

أكيد ما راح أنسى فضلك «سامحني».

أما أبو ياسين فسمع الصبي يوصل له رسالة الوداع فرد بتعجب:

«تجارة في الحج؟ الولد هذا خرف. فينه دحين؟».

نزل أبو ياسين بعصبية وأمسك الصبي وهو يقول: «يا ولد فين
حمزة؟ إيش سويت له؟».

قال الصبي: «أتركني والله ما سويت شي».

ما حصل لأبو ياسين هو الجنون!! كيف لحمزة أن يتركه؟

لم يتقبل هذا الفراق المفاجئ. دارت الدنيا حوله ولم يعرف ماذا يفعل أو كيف سيلحق بحمزة. جلس بانهايار على الكرسي وسقط عنه، فجاء بعض تجار شارع قابل يمسكون به وهو يقول:

«حمزة تركني. الصبي حمزة. هذا الولد اللي ربيته من عمره أربع سنوات تركني».

ساعده بعض تجار شارع قابل أن يتوازن ويجلس مرة أخرى على الكرسي ويطلبون منه أن يقول: «لا إله إلا الله».

لكنه قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

خامر المارة إحساس عابر بالشفقة على هذا العم المسكين.

أحضروا من داخل محله ماء الورد وفتحوه وصبوه على صدره وعلى وجهه وهو يهذي: «حمزة تركني».

جاء ياسين يجري من بيته فقد أخبره بعض الأطفال عن حالة أبيه فوصل وهو يلهث: «أبوي أبوي إيش صاير؟».

أمسكه الأب وصرخ عليه أمام الناس: «إنت آذيته. أكيد إنت السبب. حمزة تركني بسببك».

حاول الناس أن يبعدوا ياسين عنه.

انهار ياسين وصار يقول: «إيش فيه أنا ما سويت له شيء والله». أبعاد الناس ياسين وقالوا له: «ارجع البيت ياسين ارجع». ونصحوه بالمغادرة.

رجع ياسين وهو يبكي. لم يكن يتخيل أن يصرخ عليه أبوه أمام الناس ومن أجل من؟ من أجل الصبي حمزة؟!

وصل ياسين إلى البيت ورمى نفسه على صدر أمه وبكى مثل الأطفال مع أن عمره 21 سنة.

لم تستوعب أم ياسين الأمر ولا ياسمين.

كان ذلك اليوم مثل العزاء. عاد أبو ياسين مع مجموعة من أصحابه رافقوه ليطمئنوا أنه وصل بخير.

دخل غرفة حمزة وصدق فعلاً أنه رحل. لم تحمله أقدامه.

فجاء الناس يواسونه. وهو يردد: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

أراد أحدهم أن يضيء المصباح. فانتبه البعض أن اللمبة غير موجودة. فلملم شتات نفسه وودع الناس من الدهليز، ثم صعد من الدرج وهو يشكي همه مثل الأطفال: «يا أم ياسين. سمعتي.. حمزة ترك البيت. أم ياسين».



لم يكن يدرك حمزة أنه يملك عقلية رئيس عصابة، كان يحسب خطواته جيداً، فصار يتردد خفية على صائغ سوق الليل، وفي كل

مرة يعرض له مجموعة قطع، فيتصرف الصائغ بحنكة ويبيع دون أن يلفت انتباه أحد، باعها مرة لتاجر كبير جاء من مصر للحج، ومرة باعها لأجنبي يحب جمع القطع النادرة وباع بعضها والتي ليس لها قيمة كعملة ولكن قيمة ذهب عيار 24.

كان حمزة يراقب التبادل التجاري بين الصائغ والزبائن، حتى لا يغشه، ولكل ألف ريال يأخذ الصائغ 300 ريال ويعطي 700 لحمزة.

تبدل حال حمزة. ولكنه لذكائه أيضاً لم يُرد أن يظهر عليه النعمة حتى لا يتعرف عليه أحد، كان كالنكرة لا يعرفه أحد ولا يشعر بوجوده أحد وما زالت الصرة ثقيلة، وفيها الكثير.

آن لحمزة أن يصحح وضعه ويستخرج أوراق ثبوتية، ولم يكن بالأمر السهل في أوائل الستينيات، سأل وعرف أن الناس قبل توحيد المملكة لم يعرفوا إثبات الشخصية، بل كانوا ينفرون من ذلك ويهربون جهلاً منهم بأهميتها ودورها، فهم يرون أنهم في غنى عنها، وقد واجهت الدولة آنذاك مشكلة حقيقية في إقناع المواطنين بأهميتها في حياتهم كإثبات شخصية، وقوبلت برفض قاطع، امتنع الغالبية من المواطنين عن الحصول عليها من موظفي «دائرة إحصاء النفوس» ممن كانوا يجوبون الأسواق على أقدامهم لإصدارها وتعبئة بياناتها بطريقة فورية لكل من يقابلون، إلا أنه مع حينها إلى الوقوف لهم عند أبواب المساجد والضغط عليهم ومحاصرهم لتوعيتهم ومحاولة استخراجها لهم.

حمزة لا يعرف من أبوه ومن أمه من الأساس؟ فكيف يلوم من جاؤوا به للعالم إن لم يستخرجوا أية إثباتات؟! بحث عن مركز التقديم على الجنسية وعرف أنها عن طريق إدارة الجوازات والجنسية، ودخل عند أحدهم وأعرب عن رغبته في التقديم على الجنسية السعودية.

لم يكن سهلاً الحصول على جنسية لشخص ليس لديه أية أوراق ثبوتية، حتى توصل لشخص ذي مركز كبير سمع عن شاب أفريقي مستعد أن يعطيه الآلاف من تحت الطاولة، فطلب مبلغ خمسين ألف ريال. وبالفعل اشترى حمزة حقيبة دبلوماسية ووضع فيها الخمسين ألف ريال مع ثماني صور شمسية له وورقة تعريف من العمدة زورها وسلمها لشخص ما يوصلها للمسؤول، ومع قلة التقنيات المستخدمة في توثيق الأوراق قبل ورود الحاسب الآلي فقد كان التزوير سهلاً استغرق الأمر قرابة شهرين حتى جاءت معاملته بالإيجاب فذهب حمزة مع شاهدين لا يعرفهما قدّم أوراقه ومن ثم جلس بانتظار الموظف الذي تناول الأوراق وبدأ في عملية تسجيل المعلومات، التي سيعقبها تسديد رسوم دفتر حفيظة النفوس - التابعة - وهو ريال واحد، وبعدما وقع عليها المدير، سأل الموظف عن صاحب الحفيظة فجاء حمزة إلى الموظف فجعل يطيل النظر إليه لي مطابق الصورة ومن ثم ينظر إلى الأوراق وهو يسجل أوصافه فيكتب الأوصاف كالطول الذي يكون بالاجتهاد، ولون الوجه الذي كانت خياراته بسيطة لا تتعدى «قمحي» أو «حنطي» أو «أسمر» ولون العينين فيكتب مثلاً «أسود»

أو «عسلي» أو «بني» وهكذا ومن ثم يأتي إلى العلامة الفارقة فلم يجد في حمزة أية علامة فارقة، لقد أصر أن يكون اسمه حمزة أما الباقي فكانت مجرد أسماء وضعت لتعطيه هوية، وكذلك أعطي له لقب كبير لعائلة معروفة في ينبع يتسبب لهم. حتى إن يوم ميلاده كان وهمياً. إن للمال سحراً. يستطيع أن يشتري أي شيء.

سأله الموظف: «هل تقرأ أو تكتب؟».

نفى حمزة.

ثم أردف الموظف: «المهنة؟».

فرد حمزة بعد تفكير وسرحان: «أكتب تاجر».

ثم استلم يديه التابعة السعودية وارتسمت على شفثيه ابتسامة الانتصار.



مر على رحيله عام كامل، عاش بعيداً عن عمه، غريبة هي الحياة. كيف أنسته من هو ومن كان؟! كيف عاش طوال تلك السنين ما بين عرق وكد وهلاوس، والدنيا جميلة تستحق من يعيشها؟!!

ذهب كعادته للصائغ ليعطيه مجموعة جديدة، ثم خرج بهدوء وخفة من محله وبينما هو يسير في أحد الأزقة الخالية من الناس اعترضه رجلان، كمما فمه وربطتا يديه ورجليه. كيف فاتته.

الصائغ لن يقبل نسبة الثلاثين بالمائة! وكما سرق هو الجنيهات الذهبية سيأتي من يسرقه.

سحبوه بقوة وهو يقاومهم حتى دخل غرفة في خرابة، في أحد البيوت المتهالكة.

* * *

شعر حمزة أن أحدهم يأمر وينهي كأنه الزعيم أو القائد، أما الآخر فشخصيته ضعيفة وكأنه تابع.

صرخ حمزة: «مين إنتو وإيش تبغو؟».

قال من يعتقد حمزة أنه الزعيم: «إنت من مكة ولا جدة؟».

رد بأسلوب غير مهذب بمعنى أنت ليس لك دخل فيما أفعله «مو شغللك».

ضرب الزعيم وجه حمزة بقلب بارد حتى تعجب تابعه من عنفه. ثم قال بصوت جهوري: «لما سيدك يتكلم. إنت تسكت وتسمع الكلام».

سالت الدماء حارة من فم حمزة فجمعها وبصقتها بجواره وقال: «إيش تبغوا؟».

رد الزعيم بقوة لسان توازي قوة عضلات ذراعيه: «إيش بينك وبين الصائغ؟».

رد بهدوء: «شغل».

أكمل الأسئلة وهو يركله: «شغل إيش؟. والله لو كذبت راح أوريك نجوم الظهر».

بصق حمزة لعابه المليء بالدم مرة أخرى وسكت ولم يرد.

وقتها التفت الزعيم هنا وهناك في الخرابة حتى وجد سلكاً معدنياً ثقیلاً فضرب به ظهر حمزة فسقط وهو يتلوى من الألم ويصرخ: «والله راح أوريك».

أما تابعه فقد غر فاه مذهولاً من قسوة الزعيم وعنفه. أما الزعيم فقد انهال بالضرب على ظهره وكتف حمزة حتى صاح باستسلام: «عندي ذهب. عندي ذهب. سارقه وأبغى أبيعه».

وقتها توقف الزعيم وتأكد أن يدي حمزة مربوطتان بإحكام خلف ظهره وأن قدميه موثوقتان كي لا يهرب وكمم فمه كي يوقف صراخه وكان الآخر يساعده في شد الوثاق وربطاه على عمود حديدي في البيت المهدم وقال الزعيم: «بكرة بكرة جايين نعرف منك فينها. تمام؟».

أما تابعه فقال للزعيم: «نتركه هنا لبكرة؟ ما راح يموت؟».

رد الزعيم قائلاً: «هذا حيوان ما يموت من ليلة واحدة، خليه يجوع ويعطش، المهم بكرة جايين عشان يقوللنا فين الذهب».

تركاه وهو يأن محاولاً فك الوثاق. أما التابع فقال للزعيم بخوف: «والله ما عرفت إنك بهذي القسوة؟».

رد الزعيم: «الدنيا تقسي. ولسة راح تشوف. بكرة نجيله في العصر».

قال التابع مستغرباً: «ما راح يموت؟».

قال الزعيم بضحكة: «لا».

حاول حمزة أن يتقلب يميناً ويساراً محاولاً فك الوثاق والصراخ، إلا أنه لم يفلح، سمع بعض أصوات الغربان تحوم فوق البيت المهجور. إن الوثاق شديد ومحكم، حتى جسده لا يستطيع أن يحركه، هل من المعقول أن تركوه للغد، لم تمر فترة طويلة حتى سمع خطوات أقدام شخص، إنه الزعيم، مفتول العضلات عاد، ونظر له قائلاً:

«أنا رجعلتك لوحدي. بالطيب كدة. نص بالنص. ما راح أجحف في حقك».

وأكمل: «أهو صرفت تابعي، بس أنا وإنت إيش قلت؟».

نظر حمزة إليه والعرق يتصبب من جبينه ومن بين عينيه وهز برأسه إيجاباً.

فقال له الزعيم: «تعرف من ناحية قوة أنا أقوى منك؟ فلا تضطرنني أسوي فيك شي ما يعجبني».

اقترب منه وفك الوثاق عن فمه فتنفس حمزة: «والله راح أنقاسمها معاك. ما أبغى أنضرب.. توبة».

وأردف: «يا عمي».

نعقت الغربان فوق البيت، ثم توقف حمزة لثوانٍ وهو يلاحق أنفاسه قال: «وأبغى أشتغل معاك.. اعتبرني مساعدك من اليوم».

هز الزعيم رأسه ولسان حاله يقول: «والله واد تسمع الكلام».

فك وثاقه ومشى بهدوء ومشى الزعيم خلفه.

مشى الاثنان في أزقة مكة الضيقة، حتى وصلا فوق أحد الجبال الصغيرة وكان عليه بيت قديم مهجور فقال حمزة: «هنا. هنا في السطوح دافن الذهب عشان كدة كنت جاي هنا».

صعد الاثنان والشمس على وشك المغيب، على الدرج الذي كان يتكسر.

«من خرابة لخرابة الله يخرب بيتك».

حتى صعد سطوح البيت المهجور المبني من اللبن البني. فقال الزعيم: «هيا فين الذهب؟».

أحضر حمزة آله حادة وبدأ في حفر جزء من الجدار قائلاً:

«هنا. زي ما لقيتها. زي ما دسيتها⁽¹⁾.. استمر الحفر لمدة عشر دقائق. عندها التففت الزعيم وصار يتأمل آخر لحظات غروب الشمس. استجمع حمزة كل قواه، ودفع بجسمه نحو جسد الزعيم ودفعه من الأعلى حتى هوى عدة أمتار من الأعلى على الأرض.

نظر حمزة إليه من السطح وبدى الزعيم وكأنه يصارع الحياة غارقاً في دمائه. ثم هرب وكانت الأسطح قريبة متجاورة. فصار يقفز من سطوح إلى سطوح حتى اختفى.

(1) دس: يعني خبأ.

8

مشى أبو عمران خلف إحدى الجنازات يوم الجمعة حتى وصل مقبرة «الأسد» وتم دفن الميت الذي لا يعرفه، كان للميت أطفال اثنان منهم يمسكون بأيدي بعضهم ويبكون وينادون على أبيهم مما جعله يتمنى أن لو كانت علاقته جيدة بأخيه مثل هؤلاء.

كان يزور قبر أبيه كل أسبوع، ويمر عليه بعد صلاة الجمعة، يتكلم معه، ويخبره عن حال أخيه يزيد العاق لأخيه وكم يود أن ينصلح حاله وعلاقته به. كان الندم يسكنه أحياناً، ويشعر أنه أخطأ عندما أعطى لأخيه ثلثي الثروة، لقد ظلم نفسه وظلم أخاه الذي بعثر المال ولم يستفد منه.

الحياة ليست سهلة، ودكانه الآن في شارع قابل لا يدر الكثير، فقط يدر ما يمكنه أن يعيش به بكرامة وليس برغد. أحياناً كانت زوجته تشتكي قِدم البيت الذي يسكنه فكان يرد: «أبيع نفسي ولا أبيع بيت أبوي».

تم دفن الميت، ورفع يده بالدعاء له.

هكذا الناس يمشون في جنازات بعضهم حتى لو لم يعرفوا الميت، يدعون له وكأنهم يعرفونه، ويترحمون عليه وعلى حاله.

هذا هو الموت الذي يفرق الأحباب والإخوان.

* * *

كان المطر ينزل على غير عادته في مكة عندما جلس يزيد مع منصور في إحدى المقاهي، يشربان الشاي ويرتشفان معه مرارة خسارة الأموال. كان يزيد يفكر مراراً وتكراراً كيف سيعيش بعدما

تبددت كل الأموال خلال السنوات الماضية، قال منصور: «أمس سرت جنة علب وعيش من البقالة، إيش تبغاني اليوم أفشخ؟».

رد عليه يزيد: «لين متى يا أهبل نسرق أكل وبس؟» فقال منصور بغباء: «نسيت الأسبوع اللي فات سرت تلفزيون وبعته في سوق الحراج وكسبنا».

رد يزيد بصوت أعلى: «يا غبي. لين متى عيش وتلفزيون؟

تبغى تسرق. أسرق جمل؟».

ثم أردف: «وهذا مثل يا أهبل. ما أقولك روح أسرق جمل».

قال منصور مقترحاً خطة داهية: «قتلك في جاراننا هذاك اليوم سمعته يبغى يشتري سيارة لولده. ندخل في الليل أو لما يروحوا».

فكر يزيد بصوت عالٍ: «والله ما راح أترك أخوي أبو عمران يتهنى بعيشته».

نفث الدخان هو ومنصور ثم قال: «أقولك تعال معاي مشوار». قام الاثنان ومشيا تحت المطر غير مباليين بالبلل. وسمعا الناس من البيوت يقولون: «اللهم صيباً نافعا».

كان أطفال الحارات يغنون أهازيج المطر: «يا مطرة حطي حطي. وعلينا ياللا صبي. يا مطرة».

لقد زكمت أنوفهم رائحة العدس الذي يحلو للكثيرين طبخه في المطر حتى وصلوا سوق الليل وصار يزيد ينفث الدخان الذي تصاعد للسماء وكأنه امتزج مع السحب الداكنة التي تعد بمزيد من المطر.

«إيش رأيك نسرق صيغة؟». كان الجو مليئاً بالرطوبة عندما انتشى منصور حماساً وقال:

«بس كيف؟ السوق مكشوف، والناس رايعين جابين، وفي حراسة في الليل، والدكاكين يقفلوها بأقفال».

وتابع منصور قليلاً ثم قال مغيراً رأيه بقلق: «بس تعرف يزيد هذي فيها قطع يد. يعني كل اللي سرقناه يمشي حالنا. هذي صيغة وبعدين فين نبيعها؟».

رد بتفكير عميق: «نسرق الصيغة وننزل المدينة المنورة على طول نبيعها قبل ما يبلغوا عنها».

توقف المطر، وأخذ بعض الزبائن يعودون للتسوق مرة أخرى. وظلالهم تسبح في برك الوحل الصغيرة التي تكونت بعد هطول المطر.

قال منصور بغبائه المعتاد: «نسرق من أي دكان يزيد؟».

قال: «أسمع. إنت تمر على كل دكاكين الجهة اليمين، وأنا أمر على كل دكاكين الجهة اليسار، ندخل نسوي نفسنا بنشتري رشرش⁽¹⁾ لأهلنا. ونتكلم معاهم. أعرفلي مين فيهم غبي. مين فيهم عنده ذهب كثير، وأي دكان سهل منو نشرد لو أنكشفنا».

أكمل: «ما راح نسرق اليوم. بس نعاين. ببغالنا نعاين كثير».

وبالفعل. قام الاثنان بتمثيل أنهم يريدون شراء قطعة رشرش، ويختبرون أصحاب المحلات، ويتأكدون لو هنالك أي نوع من أنواع الأمن، كصفارة إنذار مثلاً، إلا أن جميع مخاوفهم كانت في غير محلها، فهذه المحلات بسيطة يبيع فيها ناس بسطاء، والأمانة موجودة بين الناس.

اجتمع الاثنان وبدءا بتبادل المعلومات، قال منصور: «أعبي واحد شفته هذاك اللي في الزاوية، صايغ أهبل ينش دبان ما عنده زباين».

نظر يزيد من بعيد وقال: «والله هذا أكثر واحد ينفع. خلينا نعمل له مراقبة. على الأقل أسبوع. يوم أنا. يوم إنت. من بعيد. نشوف مين بيشتري منه عنده ولد ولا لا؟ كيف يفتح دكانه ومتى يقفله، يروح للصلاة ولا يقعد جوة الدكان؟».

(1) الرشرش: قلادة كبيرة متدلّية تلبسها العروس من أكتافها حتى أسفل خصرها.

منذ ذلك اليوم وعلى مدار أسبوع، كان يزيد ومنصور يتناوبان على مراقبة المحل الصغير بالزاوية والتفكير في سرقة، وفي يوم عاد منصور وقال ليزيد:

«ياخي هذي تاني مرة أشوف فيها شاب أفريقي يجي من تحت لتحت في المحل».

اتسعت حدقتا يزيد: «أفريقي؟».

ومن يومها كان الاثنان يتناوبان على المراقبة عن بُعد، حتى رأى يزيد حمزة.

«كإني شايفه قبل كدة؟ فين فين؟» حاول أن يفرك رقبته المشدودة التي تعبت من الثبات وحمل رأسه.

قال يزيد بعد تفكير عميق «جياته مو عادية. هذا عنده شيء».

صرف يزيد النظر عن سرقة محل الصيغة وصب جل اهتمامه على الأفريقي الذي يتردد على المحل، وكان يفكر أين رآه قبل ذلك. لا يهم أين رآه، الأهم هو أن يخطفاه فيما هو يهم بالخروج من سوق الليل.

تابعاه خفية حتى هجما عليه وأوسعاه ضرباً وسحباه إلى أحد البيوت المتهاكة.

عمران طفل في العاشرة من عمره، دقيق الملامح ضئيل الجسم، كان محترفاً في كل أنواع الألعاب، وُلد وعاش في حارة اليمن لأم

هادئة وأب كان يعشق والده، فكل الحكايات التي يحكيها لأولاده عن والده. سمع عمران أنه له عم اسمه «يزيد» حاول أبو عمران أن يتجنب ويتجاهل سؤال ولده ولكنه اضطر لأن يقول له: «عندك عم اسمو يزيد. بس مقاطعني».

لا يعرف عمران عمه، ولا يعرف أين يعيش وما هو سبب انقطاع العلاقة فيما بينهما، عمران يدرس كأى طفل عادي في المدرسة، وكان معروفاً أنه دائماً ما يكسب مسابقة أي لعبة خاصة «البرجون»⁽¹⁾.

كان احترافه في اللعبة يغيب صديقه «سعيد» ابن تاجر الأقمشة صادق، وبرغم أن صادق وأبو عمران أصدقاء وأحباء وكلاهما تاجر أقمشة في شارع قابل إلا أن هذا الود لم يصل إلى ابنيهما اللذين كانا يتعاركان دائماً.

سعيد وعمران يجمعهما عامل مشترك وهو أن كلا منهما لا يعرف «عمه»، فسعيد لا يعرف عمه بكر، وعمران لا يعرف عمه يزيد.

لكن تجمعهما احترافية الألعاب كلها من الشطرنج، والباصرة، وكرة القدم، والضومنة وكل الألعاب الشعبية، الاختلاف الجذري بينهما أن عمران لا يمتلك حنجرة قوية وصوتاً جهورياً أو جسماً يستطيع به أن يقود أطفال الحارة بعكس سعيد الذي كان بدون منافس زعيم أطفال حارة البحر بجسمه القوي وصوته العالي مما أكسبه الفتوة دون أدنى تردد من أطفال الحارة. الكل يهابه ويتبعه

(1) البرجون: كرات زجاجية ملونة تعتبر من الألعاب الشعبية.

دون أن يملي على أي منهم. كان الكل رهن إشارته والكل يهابه حتى لو كان أكبر منه عمراً. إن الحقد الدفين بينهما جعل سعيد دائماً يأتي من حارة البحر إلى حارة اليمن كي يلعب مع عمران على مرأى من الجميع وبالذات لعبة البرجون، كان يستلذ بالنصر عليه.

ولاحترافية عمران الرهيبة في لعب البرجون كان يكسب ويجمع البرجونات النادرة ويعود كل يوم بجيوب مليئة بالبرجونات ويضعها في علبة نيدو⁽¹⁾ فوق دولابه الخشبي.

يقضي الساعات الطويلة فوق سطح منزله تحت أشعة الشمس يتأمل كل البرجونات التي يكسبها بعرق جبينه، فالبعض من أصدقائه يشتري البرجون من البقالة، لم يضطر يوماً أن يشتريها، لقد كان يكسب، وعلبة النيدو التي بها برجونات نادرة جداً كانت ثروته. كان لكل طفل علبة نيدو خاصة به وأحياناً يتم تبادل البرجونات، وكثيراً ما كان الأطفال يتبادلون البرجونات وينادون عمران كي يخرج بعلبته فيتأملونها ويندهشون لتجميعاته النادرة من البرجون والتي كان يطلق عليها أحياناً عيون البسة.

كانت البرجونات الكبيرة تسمى «ريس» وهي تخصص عمران، وكان أقربها إلى قلبه برجون نادر جداً لونه عسلي متدرج، كان يحب هذا البرجون كثيراً وكان دائماً يرفعها أمام عينيه تحت الشمس كي يتأملها، لقد كانت تذكره بلون عيون صفية.. صفية الجميلة التي هي أجمل شيء رآه في الكون. قزحية عينها لها

(1) النيدو: نوع من الحليب المجفف يعاً في أسطوانات معدنية كان يستخدمها الكثير فيما مضى بتجميع البرجون أو العملات المعدنية كحصالة.

صفاء الكهرمان. إنها شهد مصفى جمع من رحيق أحلى زهور الدنيا. برغم أن صفية أكبر منه إلا أنه يهيم بها هيماً بريئاً نقياً.

وكان حزيناً لأن ذلك الرحماني الذي أعطاها فيه «شمعة بيضاء» كانت آخر مرة رآها فيها، فقد كلمته والدته أنه أصبح رجلاً ومن العيب أن يدخل مجالس النساء.



عصر كل يوم كان عمران يتوقع أن يأتي سعيد من حارة البحر كي يلعب معه البرجون، وبرغم أنه نادراً ما يخسر إلا أنه كان لا يطيق نظرة السخرية من عيون سعيد له. أما سعيد فقد امتلاً صدره حقناً على الهزائم الأخيرة المتكررة للبرجون، ومعظم ما كان يشتريه غالياً كان يؤول إلى عمران، لذلك كان ينتظر أي بطولة يستدعي فيها عضلات جسده.

أقام أطفال حارة البحر وحارة اليمن مباراة كرة قدم في ساحة ضيقة، يستطيع بها الأطفال أن يقيموا مرمى على اليمين وعلى اليسار ويتم فيها توزيع اللاعبين. وفيما هو يحاول أن يحاور بالكرة جاء سعيد وأوقعه على الأرض بضخامة جسده يومها تعارك الاثنان، وتوقف لعب كرة القدم وصار الجميع ينظر إليهما، تمزقت ملابسهما وطالت الجراح وجهيهما ولكن الغلبة كانت لسعيد بلا منازع.

كان ذلك الموقف كفيلاً بأن يجعل عمران يعود لمنزله بخيبة

أمل وبرأس مطأطأة أمام أصدقائه وعيال الحارة الذين يرتبون على كتفه، شعر أن كرامته قد أهدرت واحترامه فُقد. لم يستطع أن ينام لعدة ليالٍ من قهره وحسرتة، كان يمسك بالبرجون العسلي ويقول لنفسه: «سأغلبه، سأغلبه».

ذات يوم جاء سعيد إلى حارة اليمن مع اثنين من أصدقائه مرفوع الرأس فرأى عمران وقال له كلمة تستغزه فأراد عمران أن يرد عليه بكلمة، إلا أن صديقي سعيد ضرباه. وعندما شاهد أحد عيال حارة اليمن الثلاثة الذين ضربوا عمران، خرج كل عيال حارة اليمن من هنا وهناك وهم يتصارخون ومعهم عصي يريدون أن يأخذوا بثأر ولد حارتهم.

عندها فزع سعيد وهرب وتم احتجاز صديقيه مع عيال الحارة وبرغم أنهم لم يضربوهما إلا أنهم أجبروهما وبقوة أن يعتذرا لعمران، فإهانة ولد من أولاد الحارة إهانة كل أولاد الحارة.

لم يمضِ أقل من ساعة حتى جاء سعيد من بعيد ومعه عيال حارة البحر، كانوا يمشون وراءه ومعهم عصي وأخشاب ومشاعيب كان عددهم أكبر بكثير من عدد عيال حارة اليمن.

إنها مسألة كرامة وثأر ولو كان هنالك صديقان أحدهما من حارة اليمن والآخر من حارة البحر إلا أن كل منهم وقت الجد يدافع عن حارته وسمعة أولاد حارته.

وبرغم أن شباب الحارتين دائماً يلعبون مع بعضهم البعض إلا أن الحمية ملأت صدورهم وأرادوا الانتقام، عندها صرخ أحدهم:

«وقفوا يا شباب».

وأكمل: «ما نبغى دم وضرب».

ثم اقترح قائلاً: «من الأساس المضاربة بين سعيد وبين عمران. ودحين هم الاثنين اللي يضاربوا رأس برأس».

عندها اقتنع الطرفان وقررا أنه في اليوم التالي سيجتمعون على مباراة قوية حاسمة بين سعيد وعمران. ولكن.. بلعبة البرجون.

على رهان أن من يخسر سيقدم علبة النيدو التي يملكها للفائز. وهذا بالنسبة لهم رهان على ثروتهما كلها. وتم الاتفاق.



في اليوم التالي اجتمع أطفال حارة اليمن وحارة البحر في الساحة التي لعبوا فيها كرة القدم، وهناك يمكن مشاهدة كل الأطفال يلعبون الألعاب المختلفة لعبة الصور والفرفيرا والمدارية ولعبة علب الصلصة. تجمع الأطفال هو تجمع مثيرٌ ومغرٍ للحجة⁽¹⁾. كان أحد أطفال حارة اليمن محترفاً جداً في لعبة الطقطيقة⁽²⁾ واستمر أكبر قدر ممكن دون توقف حتى صفق له العيال وكان يفرك يده التي انتفخت من اللعب حتى وصل عمران ووصل من الناحية الأخرى سعيد، وكلاهما يحملان ثروتهما. علب النيدو.

(1) الحجة: وجمعه حجات وهن النساء الأفريقيات يسطون في كل مكان لبيع أغراضهم التي يحضرونها من بلادهم من الملابس والأكلات الغريبة مثل الكربو المنفوش وبعض الفواكه مثل الحمر وهو التمر الهندي ومنها أيضاً الحبجوه والدقة وبعض الألعاب أو بالونات الحظ وغيرها.

(2) الطقطيقة: اسم محلي سماها الصغار والكبار نتيجة الصوت المتوازن الذي تطلقه كرتان من البلاستيك المقوى والمربوطة بحبل يتلاعب به الصغار بتوازن.

9

عودة إلى مينة شفيدل في بريطانيا.

كانت صفية حاملاً في الشهر الثالث. تستيقظ كل صباح لتتقيأ باشمئزاز من كل ما حولها. يحاول عبد الفتاح أن يعرض عليها المساعدة فترفضه في كل مرة مما يصيبه بجرح غائر في كرامته كزوج.

لم يتغير شيء في روتين الحياة. تعود عبد الفتاح أن يستيقظ ويعد فطوره بنفسه مع بعض الشطائر، ثم يذهب للجامعة. أما هي فكانت حرة طليقة تذهب أنى شاءت. للمكان الذي تريد.

في الوقت الذي ترغب. لقد حفظت شفيدل جيداً. شوارعها، وجيرانها، وأسواقها. حتى جوها الكئيب.

كان من المقرر أن يأتي أهل عبد الفتاح في زيارة لهم في ذلك الوقت فكان ما يتحدثان فيه هو الاستعداد لمبيت عائلته معهم في البيت.

وما بين شفيلد وجدة وبعد المسافات إلا أنه تحسنت علاقة صفية بنورية عبر أسلاك الهاتف. نورية التي لم تخطب حتى الآن ولم يأت نصيبها بعد. ربما هذا ما كسر لها قليلاً وجعلها مقربة من أختها البعيدة. فزادت اتصالات صفية لها عن طريق محل كشك تليفون لونه أحمر.

في الماضي كانت تتصل بأهلها كل شهر مرة. لكن والدها لم يكلمها أبداً منذ زواجها. أما والدتها فلا يتعدى حوارها معها السؤال عن الأحوال. لم يعلموا أنها حامل بعد. لذلك اتصلت قبل مجيء أهل عبد الفتاح وقالت لأُمها من كل تلك المسافات: «أنا حامل». صمتت لبرهة ثم ردت الأم ببرود: «مبروك».

وبعد ثوان من الهدوء قالت الأم: «قولي لعبد الفتاح يجيبك جدة عشان تولدي عندي هنا في جدة».

على عكس موقف الأم كانت نورية سعيدة لأنها ستصبح خالة. ذهب عبد الفتاح وصفية معاً لاستقبال والديه وأختيه التوأم آمنة ورحمة عند محطة القطار. جاء الجميع إلى البيت وكانوا فرحين بمعرفة خبر حمل صفية التي كانت تعيش عالمها الخاص بعيداً عنهم. حاولت ألا تشعرهم بالعلاقة الباهتة بينها وبين عبد الفتاح. فكانت تصطنع الابتسامة بين الفينة والأخرى. تعد الشاي وتقوم بواجب الضيافة حتى لا تُتهم بالتقصير.

تظاهر عبد الفتاح بالسعادة أمامهم وكأنه يحيا حياة زوجية رائعة ليس لها مثيل. مر الأسبوع سريعاً. كانت تريد أن تعرف أخبار

جدة. لكن حماتها كانت لا تتوقف عن الحديث عن أخبار مدينة الطائف وأحوال أناسها. حتى قالت صفية في نفسها: «تباً.. إيش أبغى بأخبار عوائل الطائف؟!».

حاولت مرة أو اثنتين أن تسأل عن زكية بحكم صداقتهما.

فعلمت أن زكية حامل من جديد. معقول؟! مرت سنة ونصف على قصة هروبها لبيت زكية وستها حسنية. ماذا عن نبيل؟ لم تعلم شيئاً ولا تستطيع السؤال عنه.

ودّع عبد الفتاح أهله مع صفية في محطة القطار، كانت زيارتهم خفيفة. ورحيلهم أيضاً خفيفاً. وعاد الصمت يخيم على حياتهما مرة أخرى.. انتبهت أنه مر عام كامل على لقاءها بسامي. فصارت تذهب للحديقة كل يوم في شهر إبريل عام 1962 وتجلس على نفس الكرسي في انتظاره. حتى يئست من لقائه.

في الحديقة جلست منهكة. تفكر في هذه الحياة التي ليس لها معنى. الوحدة قاتلة. لقد حفظت الحديقة شجرة شجرة. عشبة عشبة. حفظت حتى الأوراق المتساقطة وأماكن سلة المهملات.

حفظت الوجوه البريطانية وجهاً ووجهاً وميزت الجاليات العربية وبالذات اليمنية التي نزحت لشفيلد وهاجرت واستقرت هناك.

التعب وغربة الوطن واضحان على محياهم. إنها تعرف تماماً أنهم متعبون سيكون الوطن، أما هي فالوطن بالنسبة لها هو نبيل.. ولا تعرف وطناً غيره.

لقد وصلت مبلغاً من الألم حتى صارت تهلوس. وكأن الناس يجلسون بجوارها ويواسونها. ولكن هذه المرة كان الشبح حقيقياً. كان سامي.

فقالت له: «وأخيراً شفتك».

غطت وجهها بكفيها وانهارت باكية. كأنها انتظرتة عاماً كاملاً كي تبكي بجواره. ربت على كتفيها. وقال «إنتي مش مبسوفة. فللي من هون».

توقفت عن البكاء ورفعت وجهها ونظرت إليه قائلة:

«أهرب؟؟ مرة ثانية؟!»

برغم أنه لا يعرف ما هو هروبها الأول لكنه قال: « مرة واحدة بتيجي على الحياة. يا بتستفيدي منها يا بتخسريها».

ثم أردف بعمق وتشويق: «روحي معي لندن.. بلشي بحياة جديدة هونيك. بدي أساعدك. بتشتغلي وبتربحي وبتدرسي».

ردت عليه قائلة: «ما عندي شهادات. أنا درست مع فقيهة في جدة. مو مدرسة».

فقال لها مصراً: «وين المشكلة. ما عندك شهادة بيصير عندك شهادة».

ردت بعيون دامعة: «إنت ليش بتساعدني؟ إنت تحبني؟».

فكر قليلاً ثم رد «ما ضروري العلاقة بين المرة والرجال حب.. في صداقة».

ثم أردف متعاطفاً: «نحننا عالم. بنحب نساعد بعض في الغربة». تساقطت دموع عينيها وهي تقول: «مو مبسوطه. أنا تعبانة.. تعبانة».

أخرج من جيبه بطاقة فيها عنوانه ورقم هاتفه في لندن ومكتوب فيها: «مطعم الفانوس» ردت البطاقة إليه ولم تأخذها.

«حتى لو ما أخذتي البطاقة. ساعة ما بدك. مطعم الفانوس في كوينزلاند بتلاقيني. بتلاقيني حدك صفيه».

قام سامي واشتري من عربة بعض الحلويات بالقرفة. محاولاً أن يتشارك مع صفيه ويغير ما تشعر به إلا أنها أشاحت بوجهها بعصبية: «ما أبغى أشم ريحة القرفة». أبعدھا سامي وهو يتأسف.

قالت بألم وهي تمسك ببطنها: «أنا حامل في الشهر الرابع». فأوماً سامي برأسه وكأنه فهم السبب، ولكن صفيه قالت كمن اعتصرها ألم الذكريات:

«أكره كل ريحة البهارات. تذكرني بأبوي. أبوي عطار. ولما يرجع من المحل كل يوم كل البيت عندنا يصير ريحته بهارات.

أنا أكره البهارات، عمرنا ما أخذنا أي دواء. كل الأدوية عبارة عن خلطة بهارات من محل أبوي».

قال لها سامي وهو مشفق: «إنتي لساتك ما هرتي من هي

الذكريات حتى لو إنتي هون ببريطانيا. فللي من هون. حرري نفسك. شوي يعني. فيكي تكوني single mom فيكي تولدي هونيك وتسجلي إسم الطفل لمين ما بدك هنا بلد حرة ما حدا بيحاسبك».

مر النسيم وحرك أوراق الأشجار. ثم ساد الصمت.

قال سامي «حبتي أغاني فيروز؟»

ردت بحسرة:

«حبيتها. فيروز.. فيروز بتغني عني أنا. حبيت سنرجع يوماً».

فرد سامي بحماس: «هي جاية بعد شهور للندن. جاية من لبنان بتحبي حفلة في قاعة ألبرت هول. كلنا ناطرينها. كلنا في المهجر ناطرينها تغني لنا».

قام ونظر لها نظرة ذات معنى: «راح تشوفي فيروز في ألبرت هول تغني قدامك. سنرجع يوماً.. اتركي كل شي وفللي.

بنفسك وبالي في بطنك».

قامت صفية. تركته خلفها ومشت سريعاً حتى دون أن تقول وداعاً. عادت للبيت وانهارت على سريرها تحاول طرد فكرة الهروب وترك عبد الفتاح والبيت.

التفتت حولها ونظرت للبيت. كم تكرهه. صار مع الأيام شبيهاً

بيتها في حارة الشام بجدة. صارت رائحته كريهة مع الأيام. حتى رائحة عبد الفتاح كريهة. وكأن الدنيا كلها رائحة بهارات. إنها كرهت كل شيء وربما لديها الاستعداد أن تتخلص من حياتها. فكرت في الانتحار ولكن لِمَ تتخلص من حياتها.؟!

كما قال سامي: «حياتك بتعيشيها مرة واحدة».

لِمَ لا تهرب وتبدأ حياة هي تختارها؟ وربما استطاعت أن تستقل بذاتها ويكون لها شأن لتعود للبحث عن نبيل.



لم تر سامي أبداً في الحديقة. لولا أنه أعطاها المسجل وشريط فيروز لظنت أنها كانت تكلم شبحاً. وأن سامي ليس له وجود من الأساس.

وبعد أسابيع وفيما هي تفكر تذكرت صوت نورية في آخر مكالمة لها. إنها تعرف نورية تماماً. تستطيع أن تميز صوتها لو كذبت. تستطيع أن تميز صوتها لو كانت سعيدة أو حزينة.

هنالك شيء غريب لم تفهمه. ربما لأن الصوت لم يصحبه تعابير وجهها. تذكرت أن هنالك مرات عديد كانت نورية تريد أن تقول شيئاً وعدلت عن قرارها.

اتصلت بها من أقرب كشك: «نورية.. إنتي إيش مخبية عني؟»

ردت نورية بخوف: «ولا شيء».

عنفتها أختها عبر الهاتف بقولها: «كذابة. إنتي بتقوليلي شيء؟»

بس مانتي عارفة تقوليلي. إيش فيه؟».

صمتت نورية. فردت صفية: «أمي صارلها حاجة؟».

فقلت نورية: «لا».

استمرت صفية بالضغط: «اهرجي. حسان ولا محسن؟ ولا

حتى أبوي؟» واستمرت نورية بقول: «لا».

فقلت صفية بصرامة: «لو ما قلتيلي إيش في راح أزعل منك

نورية».

رضخت لها نورية: «خلاص بأقولك».

مرت دقيقتان وصفية تستمع لما تقوله أختها وهي جامدة

لم تعلق أو تنبس بأية كلمة. ثم أغلقت سماعة الهاتف. وذهبت

بذهول للبائع وأعطته جنيهاً إسترلينية أكثر من المعتاد ولم تنتظر

أن يرد الباقي. فصاح صاحب المحل: «يا ميس. خذي الباقي»

لكنها مشت إلى بيتها ذاهلة.

استمرت بالمشي وهي صامته. مشت واستقلت الترام وهي

صامته تبدو كشبح ميت. مشت إلى بيتها وصعدت لغرفتها.

كل شيء توقف في نظرها. فقدت حاسة السمع.. كل ما تسمعه

طنين. دخلت في عالم مجنون صامت. ليس فيه سوى صوت

نورية التي أخبرتها عما عرفته لاحقاً. أخبرتها أنها عندما هربت

إلى بيت زكية كان نبيل في طريقه إلى أمريكا. وعاد مرتين حتى الآن. أولها لكي يخطب إحدى بنات أهل جدة، وهذه المرة سيأتي لكي يتزوجها. والفرح موعده قريب. وأخبرتها أن والدها في يوم ما. جاء يوماً متكديراً وحكى لوالدتها بأن العم عثمان عندما رأى نبيل عنفه على ما فعله بها وكيف أنه وعدّها بالزواج

وتركها في بيت زكية فقال بلا أدب فأجابه بوقاحة: «يستاehl أبو محسن. مسح بكرامتي الأرض لما خطبت بنته قدام تجار شارع قابل كلهم. وأنا مسحت بكرامته الأرض خليت بنته تهرب من بيته. كسرت خشمه زي ما كسرني».

لم يكن عبد الفتاح في البيت كالعادة.

اتجهت إلى النافذة. فتحت مصحفها فسقطت وريقات الفل الجافة. فلملمتها بهدوء. عند الشباك وبكلتا يديها فركته فأصبح وريقات هشة ضعيفة. تناثرت مع أول هبة ريح.

أما الرسالة فقد أصبحت بالية ممزقة الأطراف. قرأتها للمرة الأخيرة:

«صفية. إنتي تعرفي إيش اللي صار وكيف أبوكي رفضني.

إذا كتي تحبيني. اهربي من بيت أبوكي وأمك. تعالي اليوم قبل المغرب لبيت ستي حسنية، زكية موجودة قتللها تستناكي وتضيفك. أنا راح أكلّم العمدة وأجيبه ونتجوز بكرة. إذا ما جيتي بيت ستي. أعرف إنك ما تبغيني خلاص. ومع ذلك راح أستناكي.. أحبك. نبيل».

زفرت بألم. ثم أتت بالشمع الأبيض المكسور لثلاث قطع وتذكرت عمران وعيونه البريئة وهو يقول لها: «كلنا نقول إنك إنتي أحلى واحدة في جدة كلها. ممكن أعطيكى هذي الشمعة».

ثم جاءت بكبريت. وثبتت القطع الثلاث قليلاً وتذكرت عندما مديده بهذه الشمعة قائلاً: «أنا ما ولعتها لساتها جديدة. شوفي».

عندها أشعلت ثقاب الكبريت وقربته نحو فتيل الشمعة. فأضاءت.

جاءت بطرف الرسالة وبدأت في إحراقها. لم يكن الأمر يحتاج إلى رياح قوية ليتناثر الرماد الأسود بين يديها ويطير بعيداً مع الهواء.

تأملت كثيراً في احتراق الشمع وهو يعلن الرحيل. ينصهر أمامها ويحافظ على إضاءته. تتراقص شعلته مع أنفاسها. حتى ذاب كله وذاب معه الحب المجنون. ابتسمت. أول ابتسامة منذ زمن بعيد.. عندما تخيلت شكلها «البت الغبية التي صدقت».

وانتظرت نبيل في منزل جدته. والأدهى أنها بكت عليه لسنوات.

ليتها لم تسأل ولم تعرف. تذكرت جملة سامي: «لا تسألني. مشان يبقى ذكرى حلوة بقلبك».

كان محقاً.

ضحكت بهستيرية ضحكة مجنونة تبعثها غصة حلق. قامت.

وبحثت عن جواز سفرها. وأخذت حقيبة صغيرة بها بعض الملابس وبعض من الجنيهاات الإسترلينية. لبست معطفها وخرجت من البيت وأخذت الترام حتى وصلت محطة القطار.

إنها تهرب!! تماماً كما هربت قبل سنتين. ! كانت تجري بين البيوت الإنجليزية. كما كانت تجري بين أزقة حواري جدة.

قطعت تذكرة للذهاب إلى لندن. وجلست في القطار. وهي تلهث. لم يعد لديها أي شيء تعيش من أجله.

توقف القطار عدة محطات. وفي كل مرة كانت تنظر للناس الذين ينزلون من القطار والذين يركبون. الكل لديه سبب للرحيل. ولكن سببها هو الأجل والأقصى.

10

استقبلت زوجة خال مريم أمَّ بكر وضيقتهم مريم شايا.
وخرجت.

سمعت حديث السيدتين: «والله سمعت عن كريمكم مريم
والله يعوض عليها على زوجها اللي مات».

قالت زوجة العم اسماعيل: «كم عمر ولدكم؟»
آثرت أم بكر الصدق فأخبرتها عن العمر وأخبرتها مباشرة عن
كونه مدرساً ممتازاً في المدرسة وربما يدرس لعبد الله ابن مريم.
وأردفت كي تداري العيب: «وهو شاب ما يعيبه شيء. وما
أتزوج قبل كده».

ودعت أم بكر وتوادعت السيدتان على أن تسمع خبر ردهم.
وبكر سعيد ينتظر أمه خارج البيت، أمسك بيدها ليعودا معاً.

وهو يلقي نظرة خاطفة على الروشان وربما قبله خفية لمريم عبر الهواء.

أما مريم فقد شعرت بالفخر أنها انتصرت. وحمدت الله كثيراً على أنها لم تتهور وتخبر خالها. وشكرت الله كثيراً أن الأمور وصلت لصالحها. لكن الغريب في الموضوع أن العرسان يختفون فجأة ويظهرون فجأة فقبل يومين تقدم لخطبتها أحدهم.

فلديها الآن طلبان للزواج.

سرعان ما تبددت كل هذه المشاعر وحلت محلها مشاعر متضاربة في ذلك المساء. عندما سمعت زوجة خالها وخالها يقول غاضباً: «بكر؟؟؟ هذا واحد يا لطيف. يعني. حق بزورة.

أصلاً أبغى أنقل عبد الله من مدرسته. هذا عاش في الطايف لوحده من كثرة الفضايح. أخوه ما يكلمه. ماله عندنا بنات للزواج. ردي أمه لو جاتك».

وقتها دخلت مريم الغرفة وهي تصرخ: «خالي. أنقل عبد الله. هذا المدرس مو كويس».

وهذا ما صار لاحقاً.

لم يكن قرار رفض بكر كعريس ونقل عبد الله من المدرسة سهلاً على بكر. عاش لحظة صمت رهيبه. كان في غرفته ولم يخرج عندما سمع أخاه صادق يقول لأمه: «هذا مين راح يقبل بيه

يا أمي. ليش زعلانة؟».

عندها رفع صادق صوته وهو ينظر لبابه المغلق وقال بسخرية:

«هذا بكر عار على الدين وعلى المجتمع يا أمي».

بكت الأم بحرقة. وكأن صدى بكاءها اخترق فضاءاً لا نهائياً.

في صبيحة يوم من أيام شارع قابل.

تقابل محمود وصادق كعادتهم. كان صادق منهمكاً يحكي لصديقه محمود قصة خطبة بكر لابنة أخت العم إسماعيل. وقد ارتسمت على وجه محمود ابتسامة تعجب. عندها توقف صادق

عن الحديث وتساءل: «ليش غريبة؟».

ابتسم محمود وقال: «تذكر مو قتللك الأسبوع اللي فات اتقدمت أمي تخطبلي».

فرد صادق مبادلاً لصديقه الابتسامة: «إيوة أتذكر».

رد محمود ببعض من الخجل: «هي نفسها بنت أخت عم إسماعيل، هي نفسها مريم أم عبد الله».

فرد صادق بفرحة عارمة: «بالله عليك؟».

فأضاف محمود: «أمي قالت هي أرملة وعندها ولد واحد وخلوقة وبنت ناس وعيلة. وأنا كمان مطلق. حتى العروسة أم عبد الله قالت إنها راح تربى ولدي الرضيع وراح تعيش معنا في بيت أمي أمس أخذنا الجواب. الجماعة وافقوا».

قام صادق من محله واحتضن صديق عمره وتمنى له كل الخير.
لقد كان خبراً مفرحاً. وعلق بقوله:

«شتان ما بين الصالح والطالح. مبروك عليك صديقي. أي
عفش بيت أختار. هدية مني لزواجك».

عندها سمع العم فريد وقال بصوت فرح مبتهج: «مبروك.
ولدنا محمود فرحه قريب».

وسمع كل من في شارع قابل فذهبوا إلى والد محمود تاجر
الأواني المنزلية، يهتئونه قبل الذهاب إلى محمود نفسه الذي
استقبل التهاني.

كان شارع قابل بحاجة لأن يفرح. الكل هنأه وفرح ابتهاجاً لخبر
خطوبته.



كان صادق يحكي لأمه حكاية خطوبة صديقه محمود على أم
عبد الله. وقال خاتماً القصة: «هي العروسة أم عبد الله. بتتزوج
محمود صاحبني».

ردت الأم بحزن والقناعة تزداد رسوخاً: «كل شيء قسمة
ونصيب. ليتهم قالوا إنها مخطوبة بدل ما أتعب نفسي وأدق بابهم».

رد صادق: «كل الناس يقولوا إنهم متناسبين. هي أرملة ومعها
ولد، وهو مطلق ومعاه ولد. الله يوفقهم يا رب، العم إسماعيل من
خيرة الناس وشرف اللي يتناسب معاه».

امتلاً قلب بكر بالغیظ عندما سمع هذه الأخبار من أخیه من خلف باب غرفته. زاغت عیناه وشعر بدوار. ولم یتمالك جسمه الضعیف. فقد الكثير من اتزانه بعد رفض أم عبد الله له وانتقال عبد الله من المدرسة.

لقد استشعر بسوء ومهانة وذل. وكذلك غضب من أخیه الذي كان صوته يبدو مبتهجاً وفرحاً. كيف له أن یفرح وهي نفس المرأة التي رفضت أخاه. كم هو خائن في نظره؟!

إنه یكرهه وصار یكره أم عبد الله ویكره الناس جميعاً حتى والدته.

لقد زادت عصبیته أكثر وحاول أن یغلق أذنيه. فجيرانهم لديهم صيانة للروشان وثمة نجارون بالأسفل یطرقون ویركبون الأخشاب مما زاد حدة عصبیته.

خرج صادق. وبقيت الأم وحدها تقرأ القرآن. تساقط العرق من جبین بكر. وشعر أن لديه قوة غیر طبیعیة فقام وفتح الباب مندفعاً إلى الخارج. نادته أمه فلم یرد.

إنه یمشي مترنحاً بسكرة الغضب. لن یخمد ثورته سوى الانتقام. كان یمشي قبیل المغیب. وفيما هو یمشي رأى في الزاوية طفلاً في العاشرة من العمر متكأً على الجدار یبكي وفي يده برجون لونه عسلي ینظر إلى البرجون ویبكي ویبكي.

أراد أن یقترب منه بخبث لیكون ضحیته. لكنه عدل عن رأیه. وأكمل طریقته مبتعداً إنه یعرف أين یذهب.

وصل لذات الزاوية في حارة البحر ورأى عبد الله يلعب الكرة مع أصدقائه قبيل المغرب ناداه خفية. جاءه عبد الله الذي قال ببراءة: «أستاذ بكر. مدرستي جديدة وبعيدة كمان».

فقال له بكر باضطراب: «تعال عندي مجموعة مجلات ميكى كثيرة أبغى أعطيك هي».

قال عبد الله ببراءة: «لحظة أستاذن من أمي».

أمسك بكر بيده: «تعال. تعال ما نتأخر. تعال أعطيك المجلات ونرجع ولا خمسة دقائق».

صدق الطفل البريء هذا الوحش الضاري.

كان يسحب بيده ببطء في البداية حتى اقترب من منزله فسحبه بكل عصبية فقال عبد الله متوجعاً:

«أستاذ بكر. أستاذ بكر. بأتوجع. أترك إيدي».

لكنه سحب به بقسوة من يده وصعد الدرج حتى بدأ عبد الله في البكاء. صرخت الأم بهلع: «وي مين هذا الولد».

فأزاح أمه المسكينة بغضب قائلاً: «بعدي يا أمي مالك صلاح».

سقطت الأم من دفعة يده فدخل الغرفة وأغلق الباب بقوة على صرخات الولد الذي يستغيث ويستنجد:

«أمي.. أمي. خالي إسماعيل.. خالي إسماعيل».

غابت الشمس ووصل محمود مع أمه قبل صلاة المغرب

لبيت العم إسماعيل وهو يحمل حلويات وهدايا وتعجب إذ سمع صراخ امرأة تنوح من الداخل قائلة: «يا ويلي. عبد الله. عبد الله». وأطفال الحارة متجمعون أمام باب منزلهم.

سقط الحلى من يده ونسي أمه. وصرخ محمود وأخذ بدور الزوج الذي يحمي عائلته فقال: «إيش في؟».

صرخت مريم وهي تنوي لبس العباءة وتخرج بجنون بقدمين حافيتين لا تعرف هل غطت وجهها أم لا: «الأولاد قالوا عبد الله أخذه هذاك المجنون. أستاذة بكر».

وبرغم أن محموداً لم يتم الخطبة بعد إلا أنه شعر بغيرة شديدة مبكرة على مريم فقال بحمية وهو ينظر جانبه: «أمي خذي مريم وأدخلوا جوه أنا رايح دحين أجيب عبد الله. ادخلوا جوه ولا يطلع صوتكم. يالله».

وبرغم انهيار مريم إلا أنها أخذت بكلامه فدخلت والكل يواسيها.

ذهب محمود وهو يجري لشارع قابل. لم يجد صادق في مكانه. فركض نحو بيته في حارة البحر.

تجمع بعض الأطفال أمام منزل صادق الذي اقترب بسرعة مفجعاً، صاحت زوجته:

«يقولوا أخوك بكر دخل البيت مع ولد. واحد ولد بيصرخ من بيتهم.. يا ويلي».

وقتها جن جنون صادق: «فين سعيد؟».

وبرغم أن سعيداً كان قد بدأ في مباراة التحدي مع عمران في الحارة الأخرى إلا أن أمه وأباه لم يعرفا ذلك وظناً أن الطفل الذي خطفه بكر هو سعيد، جرى صادق نحو بيت أمه كالمجنون وكان محمود يجري نحوه. سبقه صادق وأخذ معه قطعة خشبية من الجيران الذي يصلحون روشانهم. صعد متهوراً فدخل على أمه وسمع بكاء الطفل ولم يفرق وقتها إن كان بكاء الطفل هو ولده سعيد أم ولد آخر. فقد شعر بالصمم فجأة. كسر الباب وانهاled على بكر ضرباً بالعصا الخشبية.. أما الأم فصارت تصرخ بالولد أن يخرج، فخرج وحضن أم بكر. وصل محمود ودخل الغرفة خلال ثوانٍ لكنها كانت فاصلة. فقد انهاled صادق ضرباً على أخيه وهو يصرخ بلا وعي: «يا قدر. لسالتك على البزورة. يا زنديق يا كافر يا عاق الوالدين».

أوقفه محمود صارخاً: «بس بس».

وبينما هم يلاحقون أنفاسهم. عادت بصيرة صادق فوجد ثيابه كلها دماء. وأخوه ملقى على الأرض. رمى الخشب ولم ينتبه أن على طرفها مسماراً انغرس في أجزاء مختلفة من جسد بكر.

صرخت الأم: «يالله.. يا ربي.. لا... لا».

سحب محمود بسرعة العصا الخشبية وسحب صديقه صادق المذهول وأمسك بيد عبد الله ونزل بهم. صار يدفع بصاحبه المذهول بين الشوارع حتى وصل لمكان منعزل وهو يصرخ على

الطفل بأن يتوقف عن البكاء. وصرخ على صديقه: «فسخ ثوبك يا صادق. بسرعة».

كان مذهولاً فلم يتجاوب معه فخلع محمود ثوبه وبذله مع ثوب صادق. وألبسه ثوبه ولبس هو الثوب المليء بالدم. ثم أمسكه من كتفه وصرخ حتى صار يهز في وجهه: «دحين. دحين تروح مكة ولا المدينة. أخرج من جدة. فاهم».

ودفعه حتى مشى صادق واختفى بين الأزقة.

خبأ محمود العصا الخشبية بين كومة قمامة ثم سحب عبد الله ووصل به للبيت.

دق باب منزل العم إسماعيل.

فتحت مريم الأم المكلومة الباب وحضنت ابنها عبد الله بقوة وهي تبكي ثم رفعت عيونها ورأت محموداً لأول مرة وثيابه غارقة باللون الأحمر القاني لون الدم.

صارت تهز ولدها وتقول: «لمسك؟. سوا شيء؟ لمسك؟. لمسك؟»

رد الطفل وهو يحضن أمه: «ما لمسني. كان أستاذ بكر في غرفته يبكي بس أنا كنت خايف».



رغم أن صادقاً مشى مذهولاً. لم يستوعب موقف صديقه الذي

سيغطي على جريمته. لم يرض أن يتورط صديقه لكنه كان أجبن من أن يعود للبيت وأجبن أيضاً من أن يهرب. وجد نفسه يمشي بصمت. ساقته قدماه إلى دكانه في شارع قابل.

كانت الظلمة تسود المكان. أقفل باب دكانه الملفوف على بكرة مثبتة فوق المحل ويسمى «السحاب» الذي أصدر صوتاً حاداً. أقفل الباب على نفسه وأشعل مصباحاً صغيراً وجلس يرتعد خوفاً ويأن.

لم يعرف كم من الوقت مضى عليه وهو في حالة أشبه بالصدمة. انتبه لواقعه عندما سمع الناس وقد تجمهروا في شارع قابل يصرخون قائلين: «مات... مات... مات».

لقد عرف تماماً أنه سيتم إعدامه. ارتجف وبكى حتى أغشي عليه من الخوف والهلع.. ولم يعرف بإغمائه أحد.

11

جاء أحد الزبائن يشتري من دكان أبي ياسين الذي قال له:

«والله بكرة راح يوصلنا عيش الفتوت خلص اليوم».

لكن الزبون قال: «والله أبو ياسين سمعت إنو الدكان اللي بعدك بثلاثة محلات راح يستأجره واحد وراح يبيع برضو زيك جبن ومخلل».

رد أبو ياسين وقلبه مليء بالإيمان: «يا ولدي. الله هو اللي يرزق بالعكس. جاري وأتمنى له كل الخير وراح أباركله».

هكذا كان التجار لا يملكون ضغينة في دواخلهم، ولا يتركون للشيطان مدخلاً في نفوسهم، بل بالعكس، جهز أبو ياسين مجموعة مما يملك، تنكة جبن وتنكة زيتون وقال في نفسه:

«لما يفتح جاري راح أهديه والحمد لله يا رب بترسل لي مين يونسني في باب الرزق».

وبالفعل استؤجر المحل، وكان يشرف عليه أحد الصبيان اليمنيين، جاء النجار لتركيب رفوف، وصانع الزجاج ليصنع دولاباً للبيع، وجاء بكرسي للمالك وكرسيين من الخشب من العهد العثماني أمام المحل.

كان أبو ياسين يراقب تطور المحل ويسأل الصبي في كل يوم: «متى يجي عمك؟».

حتى جاء عمه.

كان أبو ياسين يحمل بعض الأكياس فرحاً بمقدمه، فلما رآه كاد يسقط مغشياً عليه من هول المفاجأة. كان حمزة بثوب أبيض وعقال أسود، سمع أصحاب المحلات في شارع قابل: «حمزة أخذ الجنسية» و «حمزة صار سعودي» و «حمزة أخذ الجنسية».



منذ حادث دفع جسد الزعيم المجهول ليهوي من ارتفاع ثلاثة طوابق وبعد فراره من سطح إلى سطح، انتقل حمزة رسمياً من مكة إلى جدة، فحدث ذلك الزعيم جعله يتشاءم من وجوده في مكة، الخوف شيء رهيب. إنه يشعر أن أطرافه كلها بلا حياة من الخوف والذعر.

لذلك قرر أن ينتقل إلى جدة وصار يلبس الثوب السعودي الأبيض والغترة البيضاء وفتح سجلاً تجارياً، كانت أمنيته أن يعود إلى شارع قابل حيث كان يعمل صبياً عند أبي ياسين، كان يريد

أن يرى الناس أنه صاحب شأن الآن وليس صبيّاً يعمل تحت إمرة أحد، لكن لماذا كان يريد أن يتاجر بالأجبان والزيتون مثل أبي ياسين. هل لأنه احترف المهنة ويعرف أسرارها ومصادرها ومكاسبها. أم لغرض آخر في نفسه؟

دمعت عينا أبي ياسين. وأخذ حمزة في حضنه.

«يا ولدي وحشتني. أتغيرت كثير».

ولكن حمزة ابتسم بجفاء وقال: «الدنيا ضحككتلي يا عمي. أشتغلت في الحج والحمد لله وسع علي الرزق. ورزقني ربنا بالجنسية».

لم يشك أبو ياسين لحظة في حمزة، وحتى جفاؤه الذي لاحظته الكثيرون في شارع قابل ومنهم ولده ياسين الذي سحب أباه وقال له جانباً: «تعال يا أبوي جونا زباين».

كان ياسين يريد أن يحفظ ماء وجه أبيه، وبرغم أن الكل كان يهمس في أذن أبي ياسين أن حمزة لم يعطه حقه من الاحترام، وأن نظراته له تخلو من التهذيب وفيها تعالٍ وكبرياء، إلا أن أبا ياسين لم يصدقهم، واستمر في إبداء حبه واشتياقه له.

أما ياسين فلم يستطع أن يطبق نظرات الكبرياء في عيون حمزة، كان يشعر أن هنالك شيئاً مبهماً غير مفهوم في التطور السريع الذي طال حمزة. لم يكن من باب التعالي عليه لكنه حتماً شيء ما غير صحيح وغير قابل للاستيعاب. كل شيء يمكن مغفرته طالما يقع

في علم الغيبيات، ولكن لماذا هذا الجفاء ونظرات الكبرياء على من علّمه ورباه وألبسه وأطعمه وأسكنه.

حاول ياسين أن يتكلم مع والده ويقنعه أن حمزة لا يستحق هذه النظرة الرحيمة منه لكن أبا ياسين أبى وأخبره أنه لا يجوز التكبر على الناس بعدما رفع مقامهم.



لم يستسغ أي تاجر في شارع قابل حمزة، كانوا يتسمون مجاملةً له. في يوم ما جاء حمزة وأخذ يضبط شماغه وعقاله أمام أبي ياسين متعمداً فاستقبله الأخير بحرارة وجلس على الكرسي أمام محله، كان ياسين داخل المحل، يرمقه بنظرات الغيظ. اعتدل حمزة بجلسته وبصوت رخيم قال: «عمي تعرف ربنا فتحلي وصار لي الآن شهر من يوم فتحت الدكان».

رد أبو ياسين فرحاً: «الله يرزقك يا ولدي ويباركلك أنا فرحان عشانك، بس زعلان ما زرتني ولا سألت عني».

فاعتدل مرة أخرى في جلسته وقال: «أكيد أكيد يا عمي بتشوفني قريب. تعرف ربنا كمان أكرمني بالجنسية السعودية».

سادت لحظات صمت قطعها أبو ياسين قائلاً: «ياسين بالله روح جبلنا شاي أنا وحمزة».

لم يستطع ياسين أن يكبت قهره. كيف دارت الدنيا كي يجلب لحمزة الشاي، لقد كان حمزة خادماً يخدم والده، استشاط غضباً

لكنه لم يكسر كلمة والده، وذهب إلى أقرب مقهى لشارع قابل لي جلب صينية شاي، وعندما عاد سمع حمزة يقول لأبيه:

«ويشرفني أطلب إيد بنتك ياسمين على سنة الله ورسوله».

وقتها أوقع ياسين الصينية فانسكب الشاي من البراد وكسرت الفناجين الصغيرة ذات الأذان الزجاجية، وجاء كالوحش وسحب العقال والغترة من على رأس حمزة ورمها في الأرض وأمسكه من ياقة قميصه حتى كاد يشقها صارخاً: «إنت وصلت بيك الجرأة تخطب أختي كمان!!».

حاول حمزة أن يبعد يد ياسين، ولأن بنته ضعيفة لم يستطع المقاومة كثيراً، فلكمه الأخير على فكه وسال من فم حمزة الدم.

كان المشهد عنيفاً مزللاً أمام الناس في شارع قابل، فتجمع التجار، وترك كل واحد مكانه وهرع إلى دكان أبي ياسين محاولين فك الشجار بين حمزة الذي سلم نفسه تحت ضربات ياسين، حتى استطاعوا أن يبعدوا ياسين عن حمزة وينقذوه من لكماته التي نزلت عليه عن يمينه وشماله.

انشق ثوب حمزة وكذلك ياسين وسال الدم من أنف حمزة وفمه، واصطبغ وجه ياسين بحمرة الغضب وكان يصرخ لكنه توقف عندما سمع صراخ أبيه عليه: «اهدأ ياسين. يا ولد قتلتك اهدأ. تعال البيت».

سحبه أبوه ومشى معهم ثلة من الناس، أما حمزة فقد وجد نفسه

وحيداً حيث انصرف الناس عنه فلملم عقله وغترته من الأرض
وساعده الصبي اليمني الذي يعمل معه. وكان يردد مهدداً:

«بسيطة.. بسيطة».



لم يمر هذا الموقف مرور الكرام على حمزة الذي كان يذهب
يمنة ويسرة كالنمر الغاضب لا يعرف كيف يرجع كرامته التي
أهدرت أمام تجار قابل، جاء أحد التجار ناصحاً له: «يا حمزة والله
نعرف إنك صرت رجال بس شوف كيف تعاملك مع عمك».

وقال آخر: «يا حمزة كان استشرتنا أول ونحن نطلب لك إيد
بنت أبو ياسين».

وقال أحدهم: «المفروض أول شيء تستشير العمدة».

وصلت الأخبار والحكايات آذان العمدة. جلس كعادته في
المركز وأرسل في طلب لقاء حمزة، لكنه اعتذر مرتين ولم
يذهب. تغير حمزة، تحررت شياطينه فيما مضى، نظراته ليست
هي، ووجهه ليس هو، أصبح هو نفسه شيطاناً واحداً كبيراً حتى
أشيع عنه أن عيونه أصبحت حمراء، والذي نشر هذه الإشاعة عيال
الحارة القريبة من شارع قابل.. أما ياسين فكان يتجاهل حمزة كلما
دخل شارع قابل، كان ينظر ناحية دكانه ولا يسلم عليه، لم يستطع
مقاومة مشاعره الغاضبة تجاهه حتى أثر هذا النفور في نفس حمزة،
ولم يزد إلا تعالياً وكبرياء.

كانت الأيام تمر على أبي ياسين ويقلّ عدد زبائنه، فكل الزبائن تشتري من المحل الجديد الذي يبدو أنظف وأجمل ترتيباً، ومنتجاته طازجة أكثر. حمزة ذكي، يعرف الناس الذين كانوا يتعاملون مع أبي ياسين في الماضي، كما أنه نحاً وحصر أبا ياسين، فكل الأجبان يشتريها ويوزعها، يشتري الزيتون بكميات أكبر ويخفض السعر، مع مرور الأيام، انخفض دخل أبي ياسين، وأصبحت معظم أجبانه على وشك أن تتعفن، فكان يوزعها على الفقراء قبل أن تنتهي صلاحيتها.

أصبح دكان حمزة مُدراً للمال، جامعاً للزبائن، نسي الناس دكان أبي ياسين، والكل صار يقول: «عيش فتوت حمزة» أو «شريك حمزة». لم يكن يسلم على أحد، يدخل كملك لشارع قابل ويخرج كملك يخدمه صبي يمني، ولم يحترم أبا ياسين ولا العيش والملح الذي بينهما. نفر من حمزة كل التجار، وصاروا يتجمعون ليشتروا من أبي ياسين حتى لا تبور تجارته، لم يزد هذا في قلب أبي ياسين إلا حزناً حتى اقتنع في يوم من الأيام أن حمزة ليس هو نفسه الطفل ذا الرابعة من عمره الذي رباه.

تساقطت دموعه فأخفاها عن ياسين في المسجد، كان يستحضر ذكريات حمزة الذي كان يبحث عن حذائه ليلبسه فيمسح هو على رأسه.

الأحوال مضطربة في شارع قابل، إن نبضات المشاحنة بين ياسين وحمزة أثرت على نفسيات جميع التجار، والحرب

أصبحت مكشوفة والحال أصبح صعباً، اقترح ياسين على أبيه أن يتركوا شارع قابل وأن الأوان أن ينتقلوا ويفتحوا باب رزق في مكان آخر.

العمدة الذي جلس على المركز مرة أخرى مع النقيب وكان وجهه مكفهراً وأرسل في طلب حمزة للمرة الثالثة. ولباه النداء هذه المرة وصل حمزة رافع الرأس مبالغاً فيها، وجلس أمامه بكل ثقة مما جعل العمدة يستشعر ما قاله الناس عنه ولكنه كان لا بد وأن يتأكد فقال: «بتحترم عمك يا حمزة؟».

رد بوجه مستهزئ: «ليش سمعت غير كدة؟».

كانت نبرته مستفزة مما جعل العمدة يرد بجهارة صوت:

«إيوة سمعت. سمعت إنك ماخذ كل الزباين ومنزل سعر الجبن والزتون عشان تضرب على تجارة عمك».

رد حمزة: «تجارتني وأنا حر فيها وأحط السعر اللي أبغاه».

وقتها تأكد العمدة من قبح أخلاق حمزة وسوء نيته فقال العمدة بحزم: «خلص إيجارك وانقل من هنا».

عندها وقف حمزة ضاحكاً بسخرية وقال بلا احترام: «والله لو السما انطبقت على الأرض ماني بناقل. واللي في رأسكم سووه».

وقف النقيب يريد تأديبه لكن العمدة أوقفه وقال: «سييه يروح».

انسحب حمزة من أمام العمدة ضاحكاً بسخرية: «والله منجد. قال أنقل».

اجتمع بعض التجار ومنهم العم عثمان وكذلك صادق والعم فريد حول العمدة يواسونه على ما بدر من سوء تصرف من قبل حمزة.

فقال العمدة مستشيراً: «ايش رأيكم يا جماعة؟ ايش نسوي معاه؟».

فرد أحدهم: «ببساطة راح نكلم ملاك شارع قابل ونطلب منهم ما يجددوا الإيجار لحمزة».

فقال الآخر معترضاً: «نبغاه يخرج من الشارع. بس ما نبغى نكون سبب في قطع رزقه كمان».

فقال أحدهم: «مين الأهم؟ أبو ياسين اللي صار له سنين ولا هذا حمزة اللي طلعلنا من فين؟».

رد أحد التجار: «ما هي مسألة مين أفضل عندنا. لا فرق بين عربي ولا أعجمي ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى».

فقال الآخر: «ياخي ما جبننا سيرة لونه. نحننا زعلانين على أبو ياسين اللي حتى ما رضي يشتكيه وكاتم في قلبه المسكين».

رد أحدهم بآه عريضة: «آه. إيوة واللّه كلامك صح. الراجل اتدهورت صحته وتجارته. ولا هو راضي يتكلم».

فقال أولهم: «سمعت إنو مرض. وطاح من الهم ما صار يجي الدكان كل يوم».

ساد الصمت وتكلم العمدة: «ما نقدر نقطع برزق حمزة ولا نرضى باللي يصير مع أبو ياسين. حاولت أكلمه بالطيب».

قال النقيب غاضباً: «أتركني أدبه يا عمدة».

رفع العمدة بيده قال: «نحن ما نحب الأذية».

ما زال النقيب متحاملاً على حمزة عندما قال وهو ينظر للجميع واحداً تلو الآخر: «الواحد فيكم محد سأل نفسه من فين جاب الفلوس هذي كلها؟».

تمتم الجميع وردوا: «الله الرازق. ما نعرف يقول إنو كسبها من تجارته في الحج».

رد النقيب: «أي تجارة في الحج تجيب كل هذي المكاسب في سنتين. يا جماعة ما تيجي بالعقل».

عندها ساد الهدوء وفكر الجميع وكان أحدهم يأخذ من النارجيلة وينفث بدخانها والآخر يصب الشاي ويقدمه لكل.

الكل كان غارقاً في التفكير. كيف لحمزة أن يكون غنياً هكذا في ظرف سنتين؟!



كان حمزة يحب أن يجلس في دكانه بعد انصراف الجميع عن شارع قابل وعندما يقفل التجار دكاكينهم، كان يقفل على نفسه الباب الحديدي ويشعل اللبنة الصفراء الصغيرة التي أخذها من

غرفته القديمة، كان يتمدد على الأرض ويتأملها طوال الليل، لقد احتفظ بهذه اللبة وعلقها عندما اشترى دكانه.

غريبة هي الدنيا!! في الماضي كانت هذه اللبة مصدر سعادة، والآن هي مصدر لذكرياته القديمة، يحتفظ بها كصديق قديم لم يتغير عليه، تغير على كل الناس وأولهم أبو ياسين.

دكانه صغير ومحاط بمؤونة الأكل هنا وهناك لكنه يستمتع بالنوم تحت اللبة الصفراء على الأرض. لماذا لا يشتري بيتاً وسريراً وأريكة؟! هل هذه تبعات الفقر الذي يلاحقه ولعنة العناء والشقاء؟!

كان يتأمل اللبة الصفراء ويتساءل أين تلك الشياطين التي كانت تحوم حول أذنيه وتلامس قلبه. لقد اختفوا جميعاً. لا يوجد أحد، ولا يعرف أحداً. إن هذه اللبة هي صديقه الوحيدة في العزلة والفراغ. ما زالت قادرة على الإضاءة.

برغم كل الهالة من الغنى والبذخ الذي وضعه على نفسه إلا أنه يشعر بالمهانة، وبرغم العقال الأسود الذي يلبسه فوق رأسه إلا أنه يعيش في وهم.

لم يملأ عيني أبي ياسين، واحتقره ياسين وضربه لأنه تجراً وطلب يد ياسمين. لماذا هو غاضب من أبي ياسين؟ ما الذي فعله ذلك المسكين. إن عينيّه حزيتان وهما تنظران إليه. ما هذا الجفاء والقسوة؟ كيف تغير هكذا؟! كيف تخطى الحدود والحواجز كي يزاحمه في تجارته ويهدد لقمة عيشه؟!

دق أحدهم الباب الحديدي وعرف حمزة أنه الصبي اليمني،
فصرخ عليه حمزة: «كم مرة قتلتك لا ترعجني لما أكون في
المحل هنا في الليل لوحدي».

فرد الصبي: «طيب يا عمي بس قلقت عليك».

فرد بجفاء: «انقلع يماني».

كان دائماً ما يناديه بـ «يماني» بأسلوب السخرية والتعريض.

وكأنه بهذا ينتقم من كل الناس الذين كانوا عنصريين ضده فيما
مضى عندما كانوا ينعته بـ «أفريقي». وكان له ما يريد، فقد مشى
الصبي تاركاً عمه في المحل وبعضاً من الضوء الخافت الذي
يتسرب من تحت الباب الحديدي وينير به شارع قابل الذي غط
في الظلام.



«إيش قلت يا أبوي؟»

كان أبو ياسين ينظر إلى بيالة الشاي. وهو صامت.. فهمست أم
ياسين بهدوء: «يا أبو ياسين. ياسين بيكلمك».

رفع عيونه ونظر إلى ياسين وقال: «إيش؟».

ردد ياسين ما كان يقول: «نقل من شارع قابل. سمعت عن حي
جديد ما فيها حتى بقالة».

كانت أمه تقرأ القرآن. وياسمين تجلس تحت الروشان تطرز

شيئاً بيدها. لقد كان. الصمت يطبق على البيت لدرجة أن أبا ياسين يستطيع أن يسمع صوت الخيط الذي يدخل ويخرج عبر الأنسجة وياسمين تجره.

إنها تجرح قلبه. تذكره بكاء حمزة وهو في الرابعة من عمره، عندما دقت أمه الباب وفتح لها وقالت له بصوت متألم: «أنا بأ تزوج يا أبو ياسين خذه ما أبغاه. بجاه النبي تأخذه لو كنت تعز أبوه».

أبو ياسين يتذكر أبا حمزة جيداً. لقد كبر وعاش معهم وكان صبيّاً يعمل مع والده ويخدمه وهو صغير، كان والده ياسين دائماً يحكي حكاية ذهابهم في رحلة صيد في عام 1920. حيث وجدوا قارباً خشبياً صغيراً يترنح على سطح الماء تتمدد عليه أم ميتة ورضيع استطاع أن يعيش لأنه كان يرضع من ثدي أمه. كان هذا القارب قريباً من ميناء جدة، وقيل إنه قارب قد فر من إحدى السفن التي لها نشاطات مشبوهة، كان أبوه يحكي أنه وجد القارب وكان الذباب يحوم فوق الأم الميتة والطفل الرضيع يصرخ يريد الحليب من صدرها الذي جف. هذا الرضيع هو والد حمزة.

اختلف الكثيرون بحيث رووا الحكاية كل على هواه. منهم من قال إنهم من الصومال. ومنهم من قال إنهم من إثيوبيا. ومنهم من قال إنهم من كينيا. اختلفت الآراء. ولم يختلف أحد مع والد أبي ياسين والذي وقف يحمل الرضيع بين يديه وبعد صلاة الجمعة وأمام الناس وعد بأن يرعى الطفل الذي سماه «أبا حمزة».

دفنوا الأم بدون أية أوراق أو هوية تدل عليها وعاد للبيت مع الرضيع.

كبر «أبو حمزة» مع ولده «أبي ياسين». وصار صبيّاً خادماً يحرس البيت حتى زوجه والد «أبو ياسين» من إحدى السيدات الإفريقيات المتخلفات في الحج في مكة وجاء بها لحارة الهنداوية في جدة.

تزوج أبو ياسين وأبو حمزة في أوقات متقاربة في الماضي، شعرت أم ياسين بالآلام المخاض في الشهر السابع، فذهب أبو ياسين كالمجنون يبحث عن الداية «الخالة لطفية»، بحث عنها هنا وهناك، حتى قال له أحد الصبيان شوفتها هنا في الهنداوية، جرى خلف الطفل حتى وجد نفسه أمام منزل قديم جداً وهو منزل أم حمزة، لم يترك الباب. لأنه سمع صوت الخالة لطفية وهو يميز صوتها جيداً تصرخ على السيدة من الداخل ولم يقصد التنصت من خلف الباب ولكن الصوت كان عالياً. حتى برغم شغب الأطفال. فقد كانت الداية تقول: «لأ.. لأ.. ما راح أنزله».

وتترجأها أم حمزة: «رح أموت نفسي».

فردت عليها الداية: «مالي صلاح. أعوذ بالله من غضب الله». خرجت الداية ووجدت أمامها أبا ياسين قائلاً وعيونه على الأرض: «خالة لطفية أم ياسين تعبانة».

رأته أم حمزة من خلف الداية وهي خائفة وفزعة من أن يكون قد سمع الداية.

مشت الداية خلف أبي ياسين بمسافة وكان يحدث نفسه: «لم كانت أم حمزة تريد إسقاط جنينها؟».

هز برأسه ينفض الأفكار السيئة. قائلاً: «أعوذ بالله».

ساعدت الداية أم ياسين التي وضعت مولودها في الشهر السابع، برغم انشغال أبي ياسين بولادة طفله والخطر الذي يواجهه كونه صغيراً. لكنه لم ينس موضوع زوجة أبي حمزة، هذا الأخير جاء يوماً فرحاً مخبراً أباه أنه سيصبح أباً. الداية لم تخبر أبا حمزة بنية زوجته في التخلص من الجنين، وبقي ذلك الموقف لغزاً معلقاً في باله طوال سنوات.

مات أبو حمزة قبل أن يولد حمزة. كان يوماً حزيناً. أصيب بنوبة قلبية وهو يحمل البضائع، سقط أرضاً وفارق الحياة.

كان قلب أبي ياسين يقول له إن الحزن الذي استبد بأبي حمزة قد عجل موته. بعدها بشهور مات أبوه أيضاً موتة شريفة وهو في الحرم المكي.

حالتا وفاة مرت على أبي ياسين في أقل من سنة واحدة. جعلته يحزن ويتألم. ويتحمل مسؤولية البيت ومسؤولية أمه وطفله ياسين الذي تجاوز مرحلة الخطر. عندها سمع أن أم حمزة وضعت طفلها.

اختفت أخبار أم حمزة. كان أبو ياسين يسأل عنها يريد أن يسأل عن الطفل وفاءً لوالده الذي عاش مخلصاً لأبيه.

وفي يوم ما. جاءت أم حمزة إلى باب بيته وسلمته الطفل وهو في الرابعة من عمره. أصغر من ابنه ياسين بشهور.

«أنا بأ تزوج يا أبا ياسين خذه ما أبغاه. بجاه النبي تأخذه لو كنت تعز أبوه».



قام أبو ياسين وفتح الدولاب الخشبي يبحث عن صندوق يحتفظ فيه بأغراضه الخاصة، فوجد قلادة قديمة جداً من شعر حيوان والتعليقة التي عليها من عاج الفيل محفور عليها رسومات إفريقية غريبة كانت هذه القلادة معلقة على عنق الأم الميتة في القارب عام 1920.

عندما مات أبو حمزة بكى عليه والده كثيراً وكان نادماً على أنه لم يستطع أن يعطيه هذه القلادة، فهي الشيء الوحيد الذي ربما يدل على هويته. خلال الستين اللتين اختفى فيهما حمزة كان أبو ياسين حزيناً مثل والده لأنه تمنى أن يعطي حمزة هذه القلادة الإفريقية وإن كان ليس لها معنى الآن. لكنها من حقه، إنها لجدته. وضع القلادة في جيب ثوبه: «بكرة. بكرة أعطيتها لحمزة وأسلمه الأمانة».

12

كثرت زيارات يزيد الذي كان يمر على أخيه في منزله ويطالب بثروة أبيه، وقد تدخل شيخ القماشين في حل خلافهم لكنه عبثاً حاول، ثم تدخل العمدة و لم يستطع يحل الإشكال حتى وصل خلافهم إلى قائم مقام جدة ولم ينجح أحد في إقناع يزيد بأن أخاه أعطاه كل ما يستطيع. أعطاه حقه وزيادة.

إلى أن عجز أبو عمران وصرخ في وجه أخيه: «أعلى ما في خيلك أركبه».

كانت هذه الجملة بالضبط ما ينتظرها يزيد الذي ابتسم وقال:
«راكب الخيل وجايك».

ذهب يزيد بعد ذلك إلى مخفر الشرطة وقدم ورقة تثبت أنه يمتلك المنزل الذي يقطن فيه أخوه، وفيما يحرر الشرطة محضراً وبلاغاً تذكر بخبث ذلك اليوم الذي اجتمع فيه الناس

ليصموا والده على ملكياته، ووضعوا كل الأوراق في صندوق تحت سريره.

عودة إلى الماضي وسنين للوراء.

تذكر أنه كان يلعب أمام المنزل ودخل المنزل فجأة ليرى والده المريض وهو نائم من التعب، فاقترب من السرير وسحب الصندوق وفتحه، كانت مهارة القراءة عنده لا تكفي كي يميز الأوراق والصكوك التي تحمل جملاً طويلة، ولكنه انتبه إلى اسم الزقاق والجهات شرقاً وغرباً وعرف أن إحداها تخص المنزل.

طبق الورقة ووضعها في جيبه، ثم انتبه إلى أن هنالك ورقة خالية من أي شيء، فخرج من الغرفة وجاء بفحم وفتته ووضع بعض الماء على بودرة الفحم، فجاء إلى والده النائم وبلل إبهامه، وبصم عدة مرات على الورقة الخالية، ثم أعاد الصندوق إلى مكانه.

في اليوم التالي ندم على فعلته، وكان يريد أن يعيد الصك والورقة إلا أنه شاهد أبا عمران قادماً من الدكان مع أحدهم وهو يتكلم عن الدكان في مكة وأنه سيتردد عليها ليتأكد أن المكاسب مستمرة. وقتها حقد يزيد وشعر بالعدوانية، فقرر الاحتفاظ بالورقتين.

بعد موت والده بثلاثة أيام حضر الناس وفتحوا الصندوق بغرض توزيع الإرث فلم يجدوا صك البيت، كان أبو عمران من الحزن بحيث لا يستطيع أن يفكر، وقرر الثلاثة أن يكتبوا اتفاقية أن

يؤول المنزل إليه مع دكانه بجدة بعدما حصل يزيد على منزلين في مكة وكذلك دكانين في مكة.

آن الأوان ليزيد أن يقدم على هذه الخطوة الأخيرة فذهب إلى شرطة مكة وقدم الصك الأصلي للمنزل الذي سرقه في الماضي مع الورقة. تلك الورقة الخالية إلا من بصمة أبيه بالفحم وقد كتب عليها أن البيت في جدة من حقه ووقع باسم شاهدي زور على قيد الحياة أغراهم يزيد ببعض المال. وبناء على هاتين الورقتين سيؤول المنزل له، بعد تطابق البصمتين، كتب مدير شرطة مكة إلى مدير شرطة جدة بكتابة ورقة إخلاء لأبي عمران.



حررت ورقة المطالبة بإخلاء المنزل وصحب يزيد شرطيين حتى وصلوا منزل أبي عمران، تسلمت أم عمران الورقة من خلف الباب، وكادت أن يغشى عليها من الخبر، وعندما عاد أبو عمران في المساء كاد يجن عندما قرأ الورقة: «إخطار بإخلاء المنزل».

لم يستوعب أبو عمران الأمر، وذهب إلى مركز العمدة، اشتكى له ما بدر من يزيد. كان رد العمدة مخيباً فقد شرح لأبي عمران أن القضية حتماً في صالح يزيد. حاول أبو عمران أن ينزل إلى مكة ويبحث عن أخيه ويتفاهم معه لكنه لم يجده. جاء الإخطار الثاني، ثم جاء النقيب مع شرطيين ومشوا حتى باب أبي عمران ومعهم إذن بطرده.

مشى الجيران وأصدقاء أبي عمران خلف الشرطة، من بينهم صادق والعم فريد محاولين إقناعهم بعدم إجبار أبي عمران على ترك البيت. فتح أبو عمران الباب وصعق عند إعلامه بأن يترك البيت وإلا..

حاول الناس أن يهدئوا من روعه لكنه أراد أن يضرب يزيد.

«والله ما ينفع فيك لا دم ولا أخوه. يا قليل الأصل».

لكن العسكر أخبروا أبا عمران أن لهم الحق في احتجازه لو تمادى أو ضرب يزيد أو خالف أوامرهم ومن الأسلم له أن يخرج هو وعائلته من البيت.

عرض جميع تجار شارع قابل أن ينزل أبو عمران ضيفاً عليهم في بيوتهم ريثما يستجمع قواه ويجد سكناً له ولأهله. لكن وقتها انهار أبو عمران وجثا على ركبته وقال بهستيرية تقطع القلوب:

«والله ما تطلعونني من هذا البيت.. أمي طلعت من هنا لقبرها.

أبوي طلع من هنا لقبره. وأنا كمان راح أطلع من هنا لقبري».

شق أبو عمران قميصه الأبيض بيديه وقال: «موتوني.. موتوني وطلعونني من هنا لقبري. وادفنونني عند أبوي».

التف حوله أولاده وهم يبكون.

عندها حن قلب يزيد عليه على غير عادته، وقال للشرطة:

«أستنوا».

نظر إلى أبي عمران الذي كان منهاراً على الأرض ورأسه مطأطأ
قائلاً: «تعطيني الدكان؟»

رفع أبو عمران وجهه والدموع تملأ عينيه: «خذ الدكان. خذ
الدكان اللي في شارع قابل. خذه كله».

دخل بعصية وأحضر بيدين راجفتين عقد الإيجار وأعطاه ليزيد.
«أشهدكم يا عالم. إنني أعطيته دكاني في شارع قابل بأقمشته.
والإيجار مدفوع لتسعة شهور قدام وأعطيته حتى أقمشتي في
المخزن، ما عندي غير بيت أبوي هذا».

التف أولاده حوله. بمنظر حزين حتى شعر العساكر بالحزن أيضاً.
وقتها التفت يزيد للناس خلفه وقال: «وأنا أتنازلت عن البيت».
رمى صك ملكية البيت وقال: «تعال المحكمة بكرة نوثق كل شيء».
انسحب العسكر والناس بهدوء وهم يرتبون على كتف أبي
عمران الذي لم يستطع أن يقوم من مكانه.

وهذا الذي صار. ذهب أبو عمران في اليوم التالي لكتابة العدل
ووثق ملكية البيت وتنازل عن كل ما يملكه في شارع قابل من
دكان وأقمشة حتى الأقمشة التي يملكها في المخازن لأخيه يزيد.

أما يزيد فجاء بمشترٍ من أهل المدينة وسيارة ضخمة وحمل
كل الأقمشة التي يملكها في المخزن. في اليوم التالي وقفت سيارة
أمام مدخل شارع قابل، ونزل يزيد من سيارة المشتري ودخلا معاً

شارع قابل ومعهما شاهدان وفتح يزيد الأقفال وفتح دكان أقمشة أبي عمران، فنظر الزبون للمحل وتم التوقيع على الاستلام، كان هذا منظرًا مؤلمًا لباقي التجار الذين يشعرون بالأسى على دكان أبي عمران. وذهبا للسيارة فسلمه المشتري المال مقابل الدكان لقد كان تاجرًا انتقل من مدينة الطائف واشترى المحل بأقمشته، وانتقلت الملكية تمامًا للمشتري الجديد وبينما كان يزيد يغلق الحقيبة ويهم بالذهاب تسمر في مكانه فجأة ونظر ناحية سوق قابل ما رآه يزيد هو «حمزة». بشحمه ولحمه. تصلب يزيد قليلًا ثم سحب نفسه بخفة واختفى بين الزحام مبتعدًا.



لم تكن الأيام التي تلت تلك الحادثة هينة أو سهلة على أبي عمران، التزم البيت ولم يفتح بابه لأي من أصدقائه، كان الكل يضع أمام منزله الفواكه والخبز وحتى اللحم. وكانت أم عمران ترسل الأطفال ليأخذوا هذه الأغراض خفية لأنه لو علم بها سيغضب.

زوجة أبو عمران مخلصه وقوية، لم تشتاك ولم تتذمر، وسرعان ما بدأت عملها مرة أخرى في تطريز المخدات وبيعها للسيدات.

كانت السيدات يدخلن بيتها وهن يسألن عن زوجها ولا ترد عليهم.

كرامة المرأة من كرامة زوجها. استقرت أوضاعها وعلمت أنها كافحت الجوع فصارت لا تتسلم أكياس المعونة وكلما سمعت

صوتاً خارج الباب أرسلت ولدها ليقول: «الحمد لله ربنا ساترها علينا أعطوها للي يحتاج أكثر».

كل تلك الأيام كانت عصبية، لم يخرج فيها أبو عمران من بيته، تكثفت لحيته وورثت حالته وبلت ثيابه. حتى لم يعد يؤدي الصلوات في المسجد. كان لا يكلم أحداً. وإن سمع صوته كانت زوجته تنهياً أنه يكلم والده ويشكي له ما فعله أخوه به.

كانت تقدم الطعام وتربت على كتفيه، وتأتي بخارقة مبللة وتمسح بها جسده لأنه يأبى أن يغتسل، كانت تقبل رأسه وتطعمه أحياناً بيدها لتتأكد أنه سيعيش. كانت تمسك بيده لتوصله «بيت الماء» وكم شعرت بأنه ثقيل وقد حنى ظهره غدر أخيه، لكنها صبرت واحتسبت. وانتبهت أنه طوال تلك الفترة كان عمران يجلس في السطح يتأمل برجونات واحدة تلو الأخرى ويضعها على عينيه، وفي يوم حمل عمران علبة النيدو وخرج فقالت له «فين رايح؟».

فرد عليها كرجل كبير: «أرد كرامتي».



وصل عمران عندما توقف أحد عيال حارة اليمن عن طق «الطقطيقة». صفق الجميع وأفسح لمقدم عمران، ثم وصل سعيد من حارة البحر، وتبرع أحد العيال أن يكون الحكم، فرسم على تراب الأرض خطأً فتوقف الجميع عن اللعب، حتى من كان يلعب

«البربر»⁽¹⁾ ومنهم من يلعب «الزقطة»⁽²⁾ توقفوا جميعهم ونظروا إلى سعيد وعمران، اللذين كانا ينظران لبعضهما البعض بكل غلٍّ وتحدٍّ.

بدأ اللعب وبدأ ضرب أحدهم لبرجون الآخر، برجون ضد برجون، فإن أصابها فقد كسب وإن أخطأها فسيكون على الآخر أن يصيبه، لذلك يصبح خائفاً إن اقترب أكثر وهكذا، في كل مرة لم يصب أحدهما الآخر، وخلال اللعبة كانت البرجونات تنتقل من مكان إلى مكان، ومن زقاق إلى زقاق وكان الجماهير يتابعون المباراة القوية التي لم ترجح كفتها لأحد منهما، مر الوقت طويلاً وانتقل الشباب من مكان لآخر، وقطعوا فيها سكة تعبر منها السيارات، ومن أزقة ضيقة لفصح كبيرة ومر الوقت وأصدقاؤهما يحملان علبة النيدول لكل منهما في كل مرة كاد سعيد أن يفوز، يبعد برجونته عمران، وعمران كذلك، كلما شعر أنه سيفوز يأتي سعيد ويبعد عنه البرجون.

مر العصر بأكمله واقترب المغرب وأثيرت بعض المحلات هنا وهناك والظلمة لم تمنعهما أن يستمرا حتى التفت كل الشباب ووجدوا أنفسهم في حارة الشام، بعدما بدأوا اللعبة في حارة اليمن. كانت الضربة وشيكة من برجون عمران لسعيد، حاول

(1) البربر: لعبة شعبية وتمارس هذه اللعبة بالرجل اليمنى ورمي حجر، ويتم تخطيط الأرض إلى مستطيلات متساوية، وعلى اللاعب أن يحفظ توازنه كي لا يفقد توازنه فيقع على الأرض.

(2) الزقطة: خمس حصوات صغيرة عادةً من الصوان المدور صغير الحجم، وتمارس هذه اللعبة من خلال لاعبين اثنين أو ثلاثة، ويقوم كل واحد بقذف إحدى الحصوات عالياً ليلتقط في المرة الأولى حصوة من الحصوات الأربع الباقية على الأرض أمامه ومن شروط اللعبة عدم سقوط الحصوة المقذوفة عالياً على الأرض.

فيها عمران أن يركز ويضع جل تركيزه في الضربة ومرت البرجون واجتازت برجون سعيد ولم تلمسها وتوقفت عنها على بُعد خمسة سنتيمترات، عندها جاء سعيد الذي تحول من خائف إلى وحش سيفوز فالمسافة الآن واضحة وبعيدة فقط قليلاً، اكتسى وجه سعيد الطفولي الوديع شراسة وجهامة وبأصابع دقيقة ثابتة.

ضرب ضربته الأخيرة فدقت برجونه برجونة عمران. فقام وصرخ بصوت عالٍ: «فرت.. فرت».

صرخ كل شباب حارة البحر وهللوا ورفعوه عالياً، أما عمران فقد وقف وابتعد عنه أصدقاؤه، حتى وضع أحدهم علبة النيدو تحت قدميه وعندما انحنى ليلتقطه سحبها منه سعيد ووجد كرسياً خشبياً صعد عليه ورفعها عالياً قائلاً:

«النصر لي»، ثم نشر كل برجونات عمران على الأرض.

صرخ الشباب والأطفال وصاروا يجمعونها أمام عينيه، كان منظرًا مؤلماً، هرب عمران وجرى بين الأزقة ووجد مكاناً خالياً على زاوية وجلس فيها يجهش بالبكاء. أدخل يده في جيبه وأخرج البرجون العسلي وقبله وحمد الله أن أخرج هذا البرجون من مجموعته واحتفظ به في آخر لحظة. إنه وإن خسر كل ما يملك لكنه لم يخسر هذا البرجون والذي يذكره بعيون صفية العسلية.

وفيما هو يبكي توقف. فقد شعر أن هنالك رجلاً أسمر نحيلًا جاء صوبه. لقد كان الأستاذ بكر ولكن عمران لا يعرفه. توقف الأستاذ بكر وأدار ظهره ومشى في حاله وكأنه عدل عن

شيء ما جال بخاطره. أما هو فقد أكمل بكاءه بمراة وهو يتأمل البرجون العسلي.



عندما تسلم يزيد حقيبة المال وفيما هو يهيم بالرحيل لمح من على بُعد «حمزة» في دكان المخملات عرفه برغم غترته البيضاء وثوبه الأبيض، عندها ابتسم في داخله بشر وقال: «والله جيت لحدي. جاك الموت».

عاد يزيد واشترى سكيناً كبيراً حاداً ثم انتظر خارج شارع قابل، وتذكر الأحداث المؤلمة قبل عدة شهور. لقد كان هو ومنصور من هجم على حمزة في مكة. هو الزعيم ومنصور التابع له، تذكر يزيد كيف أنه أخبر صديقه منصور بأن ينسى أمر حمزة، فقد كان يريد أن يستحوذ على الذهب والعملات وحده ولا يريد شراكة منصور.

لذلك أخبره أن ينسى أمره لليوم التالي، لكن عند انصراف منصور سرعان ما عاد يزيد لحمزة مرة أخرى، وفك وثاقه بعد معاهدة النصف بالنصف حتى حصل حادث الرمي من ارتفاع ثلاثة طوابق، عندما وجد الناس يزيد على الأرض مضرجاً بدمائه أخذوه للمستشفى وفي التحقيق قال لهم إن سيارة صدمته. أخفى السبب لأنه كان يريد أن ينال من ذلك الوغد الذي دفعه من أعلى البيت بنفسه.

تساءل منصور كثيراً عن مواصفات السيارة التي صدمته ولكنه أصر أنه لم ير السيارة وأغلق التحقيق سريعاً، ثم عاد منصور في

اليوم التالي إلى المستشفى وأخبر يزيد أنه ذهب للخرابة ولم يجد ذلك الرجل الأفريقي، ربما فك وثاقه وهرب، لكن يزيد منذ ذلك اليوم كان يبحث عن حمزة ليثأر منه، بحث عنه كثيراً ولم يجده، لم يتوقع أنه سيشاهده في شارع قابل وقد فتح محلاً وانتقل من مكة لجدة وصار يلبس غترة وعقالاً، حقاً إن الدنيا صغيرة.

ها هو صرير أبواب بعض المحلات يعلو وهي تغلق والتجار يرحلون واحداً تلو الآخر، خف الضجيج وديب الزبائن حتى بقي دكان حمزة، صرف حمزة الصبي الذي يعمل معه، ثم قام وأغلق محله، وفيما هو يمشي في الزقاق في الظلام شعر بوخز سكين بارد على ظهره قائلاً: «ترى ما مت».

عرف الصوت تماماً إنه الزعيم مفتول العضلات الذي دفعه من أعلى البيت، تصبب العرق من جبينه لقد ظن أنه مات ولكنه لم يمت والدليل أنه قال:

«أمشي وراي لدكانك في قابل بهدوء. حركة يمين يسار راح أقتلك وما يهمني ولا راح يعرفك أحد».

كان يجب على حمزة أن يصدق جدية من يريد أن ينتقم منه، فمشى مرة أخرى عائداً إلى شارع قابل، وفتح الدكان وأضاء حمزة لمبته الصفراء الخافتة وأقفل يزيد الباب الحديدي بهدوء تجنباً لضوضاء الصوت وقال بهدوء داخل الدكان: «فين الذهب؟».

عندها حاول حمزة أن ينكر إلا أنه وجد السكين تحت ذقنه هذه المرة. سمعاً معاً صوتاً في شارع قابل، أشار له يزيد بسبابته

أن يسكت. هناك صوت شخص يفتح باب إحدى المحلات ثم يقفله مرة أخرى، عاد يزيد ونظر إلى حمزة إلا أن الأخير ضربه على وجهه فأبعد السكين، لكن عضلات الذراع اليسرى ليزيد أطبقت على رقبته، وصار يخنقه ويخنقه بيد واحدة.

«هذي الذراع اللي ما طحت عليها».

حاول حمزة أن يتخلص من ذراعه لكنه لم يقدر وأكمل يزيد:

«ترميني من فوق البيت يا كلب. راح أرميك لجهنم».

ظل يزيد يكتم أنفاس حمزة حتى سقط قتيلًا على الأرض، فأبعده يزيد والتقط السكين من على الأرض وفتح أدراج المحل وأخذ كل ما وجد من مال وفتح الباب بهدوء وخرج. وابتعد في الظلام مستغرباً من أحد محلات الأقمشة الذي وجد ضوءها يخرج من تحت الباب وسمع من الداخل صوت رجل يبكي أو يأن فيها. لقد كان صادق ولكنه لم يعرفه من الأساس فمضى في سبيله دون عودة.

13

الفصل الأخير

غفت صفية قليلاً. توقف القطار عند إحدى المحطات. رأت الناس من الشباك. منهم من ينتظر ومنهم من يود الصعود. منهم من كان ممسكاً بياقة ورد. كانت هنالك عجوز تنتظر زوجها، تعانقا بمحبة وفجأة شعرت صفية بشيء غريب. إن من أيقظها شيء جميل. أمسكت ببطنها.

كانت أول مرة تشعر بحركة الجنين في أحشائها. لم تصدق. أمسكت ببطنها مرة أخرى وتحرك الجنين مرة أخرى. هذا ما كانت صفية تحتاج إليه. إنها الصفعة التي جعلتها تستيقظ من جديد وترى الحياة. وتذكر أن هنالك سبباً تعيش من أجله. كأن الجنين يركل بقدميه. أن استيقظي يا أمي. وعيشي من أجلي. وعودي إلى أبي.

وقبل أن تغلق أبواب القاطرة. قامت بسرعة وسحبت حقيبتها واندفعت خارج القطار إلى المحطة وأكملت مهرولة ناحية الجسر الذي يربط ما بين جانبي سكة القطارين. وصلت للناحية الأخرى عندما وصل القطار المعاكس وتوقف في المحطة في طريقه إلى مدينة شفيلد، دلفت إلى الداخل وهي تبكي وتمسح الدموع وتمسك ببطنها وتقول بابتسامة: «أنا أعيش. راح أعيش عشانك!». بنتي أو ولدي. أنا راجعة. ما راح أهرب».

وكان فيروز تعانق بصوتها زرقة السماء: «يعز علينا غداً أن تعود رفوف الطيور ونحن هنا».

ستعود إلى عبد الفتاح. الزوج الحزين الصامت الذي يحبها. نعم. إنه هو الذي يستحق حبها. حتماً ستجبه.

طار حمام مهاجر إلى ناحية شفيلد وهي تتأمله وتبتسم بين الدموع التي كانت تنزل براءة وأمل من عينيها العسليتين والتي عكسها زجاج نافذة المقطورة.



عندما عاد محمود وصعد لبيت صادق وجد أم بكر تمسح الدم من على ابنها بعويل وصراخ ولطم، استشعر أنفاسه. فاكتشف أن بكرًا على قيد الحياة لم يمت. فقام بحمل بكر بسهولة لخفة وزن جسده ونزل الدرج وتابع المشي حتى وصل الشارع الرئيسي فتوقفت له إحدى السيارات. وسرعان ما تم نقل بكر للمستشفى.

كان صادق وقتها مغمى عليه في دكانه. لم يعرف كم مضى من الوقت لكنه أفاق فوجد نفسه لا يزال في دكانه. فقام وفتح بابه وخرج فوجد الناس متجمهرين يقولون: «مات.. مات» و«سكتة قلبية».

اقترب مع الناس ليشاهد الصبي اليمني يبكي وهو يشير إلى عمه حمزة الميت. وصار يقول بحشرة:

«عمي أتأخر اليوم قلت إيش فيه جيت ما رد علي. فتحت الباب لأنو اللبة لسة بتشتغل جوة. لقيته كده. ما يتنفس. ناديتكم».

فقال الناس: «لا حول ولا قوة إلا بالله، إن الله وإننا إليه راجعون».

لم يعرف الناس أنه قتل خنقاً وظنوا أنه مات نتيجة السكتة القلبية تماماً مثلما مات والده فيما مضى. لا بد أنه ورث هذا المرض من أبيه. وصلت سيارة إسعاف في الظلمة وأرسلت أضواءها الحمراء هنا وهناك في ظلمة شارع قابل. وتم نقل جثمان حمزة للسيارة.

مشى صادق بهدوء حتى وصل بيته، استقبله ابنه سعيد الذي كان واقفاً وهو خائف من تأخره:

«والله كنت ألعب برجون مع عمران».

لم يكثرث. لحظات فاصلة في حياته عاشها. ما بين جنون وغضب ومحاولة قتل دون قصد. خر صادق على الأرض نادماً متحسراً على ما فعله بأخيه. في مشهد مؤثر بصلافة الرجل الذي يغالب نفسه.

كتب الله لبكر أن يعيش. وفي غمرة الحدث الكبير كتب محمود قصة خالدة في صفحات التاريخ قصة الصديق الذي يفدي بحياته من أجل صديقه. محمود أسطورة الخل الوفي الذي لبس ثوب صادق المليء بالدم وكان يريد أن يسلم نفسه من أجل أن يحمي صادق ويعيش.

بعد أيام. جاء صادق نادماً ورأى بكراً. اغرورقت عيناهما بالدموع ثم حضنا بعضهما البعض مسامحة ومغفرة وغمرتهما والدتها أيضاً. حقاً إن الظفر لا يخرج من اللحم.



بعد أسبوعين من تلك الأحداث. سمع أبو عمران طرقات على باب بيته. ففتحه وقد كثت لحيته. وفوجئ بالجمع الغفير يتوسطهم جاره في قابل العم فريد الذي ابتسم له وقال:
«ألبس وتعال».

لم يستطع ردهم أو حتى الترحيب بهم فذهب لغرفته ولبس بسرعة وقالت له زوجته: «يا رب. يا رب استر علينا».

ذهب معهم يمشون من زقاق إلى آخر حتى وصلوا شارع قابل. رأى العمدة يستقبله مستبشراً. ويشرف على وصول سيارتين محملتين بأقمشة كثيرة وصلت توها من مكة وينزلها العمال وقد زينوا أحد المحلات ووضعوا عليها لافتة «أقمشة عمران» على اسم والده، تجمع التجار حوله يباركون له المحل

دون أن ينتظروا منه كلمة شكر وكان من بينهم عم أبو محمود صاحب محل الأدوات المنزلية، وكذلك الشيخ الصايغ، وأبو محسن العطار كان يقف مبتسماً بجوار، يتوسطهم العمدة الذي ارتكز على العصا، اقترب منه أبو عمران وقبل أن يفتح فمه بالشكر قال العمدة مشيراً بإصبعه للسماء: «الشكر لله كلنا لبعض».

نظر حوله ووجد الجميع يرصون الأقمشة في المحل الجديد، ووصلت سيارة من المدينة تحمل أقمشة أيضاً طلبها الشيخ إسماعيل الذي كان يشير للسيارة بأن تدخل شارع قابل حتى باب المحل.

لم يرض التجار ما صار بأبي عمران، فاجتمعوا ووضع الجميع في صندوق ما تجود به أنفسهم وسجلها النقيب كدين على أبو عمران. الذي كادت دمعته تقفز من طرف عينيه.

فقال العمدة: «لما يفتحها عليك ربنا ردها» حتى لا يشعر أنها منة عليه.

نزع أبو عمران عَمَّته ومسح وجهه وفتح يديه وحضن العمدة. وحضن العم فريد الذي قال: «يا ولدي من غيرك شارع قابل ما تسوى. وحشتني يا جاري».

رد بصوت متكسر: «المعروف ما يضيع إلا عند الوضيع». هكذا المعروف لا يضيع بين الناس. ربت التجار على كتفه وسحبوه حتى دكانه وهم يقولون: «أفضل. وافتح باب رزقك». وصار يردد: «يجزيكم بالخير الواحد الصمد».

حتى جاره الجديد والذي اشترى محله بالتقيل من أخيه يزيد جاء وحياه وأعطاه بعضاً من أقمشته القديمة. تعانق الأحبة. رفع أبو عمران كفيه للسماء. لإله الكون.. قائلاً: «تدبير حكيم عزيز».



في مقبرة الأسد وبعد صلاة الجمعة أقيمت الصلاة على الميت حمزة وتم تشييعه، كان ياسين أول من يحمله وهو يبكي. حيث تم الانتهاء من التحقيق عن سبب الوفاة واستطاعوا تسلمه من ثلاثة الموتى بعد أن تم تحليل الجثة وكتابة تقرير الطبيب الشرعي بأنه قتل خنقاً ولم يعرف القاتل.

قبل أن ينزل النعش بأيادي الناس ويردموا عليه التراب أدخل أبو ياسين يده في جيبه وأخرج القلادة ودسها بين طيات الكفن.

ولآخر مرة مسح على رأس حمزة. ثم أنزلت الجثة بمعونة الرجال. وهيل على المرحوم حمزة التراب. أما ياسين فأخرج من جيبه بعض العطور من عود وكافور وسكبها على القبر. وأبوه يمسح الدمع من عينيه.

مات حمزة. ودفنت معه قلادة جدته التي وجدت على القارب التائه.

كثيرون يأتون للعالم ويرحلون وهم لا يعرفون من هم. وليس فقط حمزة. الحياة والموت لغزان كبيران. وللقدر قوى غامضة ومجهولة تنسل وتحرك وتغير المصائر والأشخاص.

أشرقت الشمس من جديد. وتخللت أنوارها ثقوب السقف المعدني لشارع قابل. وسمع صرير أبواب المحلات الحديدية.

والتجار يفتحون أبواب رزقهم التي تخبئ بين ثناياها أسراراً وخبايا. ما زال هذا الشارع يحمل بين دكاينه قصصاً إنسانية وتدوس على أرضه مختلف الأحذية. تجار وزبائن. أناس يأتون للدنيا ويرحلون منها. منهم من يعود ومنهم من لا يأتي مرة أخرى. وتبقى الأماكن كما هي تصارع البقاء.

المؤلفة

- * كاتبة سعودية من مدينة جدة.
- * أستاذة مشاركة في كلية الهندسة بالجامعة البريطانية في دبي، في الإمارات العربية المتحدة.
- * خريجة جامعة دار الحكمة للبنات في جدة عام 2004.
- * حاصلة على ثلاث شهادات ماجستير في الهندسة المعمارية والقيادة التعليمية من بريطانيا.
- * حاصلة على شهادة دكتوراه هندسة معمارية من جامعة شفيلد ببريطانيا عام 2012.
- * حاصلة على جوائز عديدة في مجال الهندسة؛ من ضمنها جائزة الإمارات للطاقة عام 2013.
- * تنشر أبحاثها العلمية باللغة الإنجليزية في مجلات عالمية محكمة.
- * لها عمود في صحيفة الرؤية الإماراتية تكتب فيه باللغة العربية.